

• A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



• A. U. B. LIBRARY

Handwritten notes at the top of the page, including "graphical" and "dominant", with some illegible scribbles.

IC
W. 1
TAC
195-V-A
C19
CCW/CC9

07/913391

185844/50

حافظ وشوئي

لطة حسين

892.7109

Ha3924h7A

من الطبع محفوظ

الطبعة الاولى

48212

مطبعة الاعتماد بشارع مصر الاكبر بمصر

مارس ١٩٣٣

فهرس

صفحة

١	الأدب الجديد
١٠	مقدمات
١٩	المثل الأعلى
٢٨	في الذوق الأدبي
٤٥	شعراؤهم
٥٤	بودلير (الحرية والفن)
٦٣	النثر العربي في نصف قرن
٨٤	البؤساء
٩٣	الشعر الشوقية الجديدة
١٠٤	النظم قصيدة حافظ الأخيرة
١١٥	شعراؤنا ومترجم أرسططاليس
١٥٢	الثناء في شعر حافظ
١٧٥	حافظ وشوقي

مقدمة

إذا أذن الكاتب لنفسه أن يتحدث الى الناس، أو وجد الكاتب من نفسه الشجاعة على أن يتحدث اليهم؛ فمن الحق عليه لآرائه التي يذيعها، وخواطره التي يقيد بها أن تصل هذه الآراء والخواطر الى أضخم عدد ممكن من القراء، لا في الوقت الذي تكتب فيه فحسب، بل فيه وفيما يليه من الأوقات.

فلمست أدري لم أذيع الرأي في ألف ولا أذيعه في آلاف؟ ولست أدري لم أعلن الرأي في بيئة دون بيئة، وأقدمه الى جيل دون جيل؟ ولا سيما اذا مضت الأيام، وتعاقت الأعوام وأنا مقيم على هذا الرأي، لم أتحوّل عنه ولم أستبدل به رأياً آخر. واذا كنت أرى أن هذا الرأي حق، أو أن فيه خيراً قليلاً أو كثيراً فقد يصبح حقاً على الناس أن أطلعهم بهذا الرأي، وأن أظهرهم عليه لأن أول ما يجب على الكاتب أن يؤثر الناس بالخير ويختصهم بما يعتقد أن فيه لهم نفعاً. واذا فلن أتردد في اذاعة هذه الفصول التي نشرت في صحف مختلفة، وفي أوقات مختلفة، وفي ظروف متباينة. نشر بعضها في

السياسة ، وبعضها في الجديد ، وبعضها في المقتطف ، وبعضها في الهلال . ونشر أقدمها منذ عشر سنين وأحدثها في السنة الماضية ، ونشر بعضها وأنا أجاهد الشعراء وأخاصمهم ، ونشر بعضها الآخر بعد أن استأثر الله بشاعرينا العظميين حافظ وشوقي ، فبطل الجهاد وزالت الخصومة ، ولم يبق لهما في نفسي إلا المودة والذكرى والميل الى الانصاف .

لن أتردد في جمع هذه الفصول واذاعتها بين الناس في كتاب ، وإن كانت قد نشرت ، وإن كان من الكتاب من يضيق بمثل هذه الأسفار ، التي يجمع فيها أصحابها ما نشروا من فصول ، ويرى أن هذا النوع من الكتب أشبه بالحديث المعاد . ذلك لأن هذه الفصول التي نجمعها بعد أن نشرناها متفرقة لم تصل الى الناس جميعاً ، أو الى أكثر من ينبغي أن تصل اليهم فليس كل الناس يقرأ كل الصحف والمجلات ، وليس كل المثقفين يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات ، ومن المحقق أننا نذيع الفصل اليوم فيقرأه فلان ، ولا يقرأه فلان ؛ لأنه جهله أو لأنه صرف عنه لسبب من الأسباب . فإذا بعد العهد بهذا الفصل نسيه من قرأه ، ومضى في جهله من لم يقرأه . ولم تشعر بوجوده هذه الأجيال الناشئة من الشباب

الذين يفتحون عقولهم وقلوبهم للعلم والأدب والفن في كل عام . ومن المحقق أن الفصول التي نشرت منذ عشر سنين فقرأها المثقفون والمستنيرون يومئذ ، ثم ظلت في الصحف مقبورة تنتظر أن تبعث أو أن يظفر بها مصادفة بعض المنقبين . من المحقق أن هذه الفصول مجهولة الآن جهلاً تاماً من المثقفين والمستنيرين الذين يقرأون الآن ، والذين كانوا في طور الصبا حين كانت هذه الفصول تكتب وتذاع . فمن الحق على الكاتب لنفسه ومن الحق عليه لهذه الأجيال الناشئة أن يجمع لهم هذه الفصول ، وأن يذيعها فيهم إذا كان لا يزال يرى ألا بأس باذاعتها وإظهار الناس عليها . كذلك يفعل الكتاب والنقاد خاصة في كل بلد وفي كل جيل . وأين كنا نظفر بنقد سانت بوف Sainte Beuve وجول لومتر Jules Lemaitre وأناطول فرانس Anatole France لو لم يجمعوا لنا هذه الفصول البارة التي ملأوا بها الصحف والمجلات في نقد الآثار الأدبية القديمة والحديثة . وكثير من هؤلاء النقاد لا يعرفون الآن إلا بهذه الفصول التي نشروها متفرقة أول الأمر ، ثم جمعوها أسفاراً أو جمعت لهم بعد ذلك . وقد قرأت هذه الفصول بعد وفاة حافظ وشوقي

رحمهما الله، فرأيت أنى ما زلت الآن عند الآراء التى أذعتها
 فيها على مضى الوقت واختلاف الظروف، فلم أر بأساً من أن
 أجمعها وأعيد اذاعتها مستعداً أحسن الاستعداد للنضال عنها
 والذود دونها والرجوع عن بعضها إن تفضل بعض النقاد
 فأظهرنى على أن فيها جوراً عن القصد أو انحرافاً عن الحق.
 وإذا كان الذين قرأوا هذه الفصول متفرقة زهدون فى قراءتها
 مجتمعة، فانى أهدي هذه الفصول الى شبابنا الذين لم يقرأوها
 أو لم يقرأوا أكثرها، وأرجو أن يجدوا فى قراءتها ما قصدت
 اليه حين كتبتها وحين جمعتها من إثارة الميل القومى الى درس
 الأدب والعناية به وتقوية الذوق الفنى وتوجيهه هذا الوجه
 الجديد الذى يلائم حياتنا وآمالنا ومثلنا العليا فى هذا العصر
 الذى نعيش فيه.

طه حسين

القاهرة ٥ مارس ١٩٣٣

الادب الجديد

لم تظهر حاجة الأدب إلى النظام في يوم من أيام هذا العصر الحديث ظهورها الآن، فقد كان الأدب العربي أول هذا العصر مطمئناً إلى حظه راضياً بحاله . مؤمناً بأنه يرضى حاجة الناس إلى الجمال الفني في الكلام ، قانعاً أيضاً بما كان بينه وبين الأدب العربي المنحط من صلة ، مقتنعاً بأن هذا الأدب العربي المنحط أرقى أنواع الأدب وأدناها إلى المثل الأعلى للجمال الفني البياني .

وكان الكتاب والشعراء - أول القرن الماضي وأثناءه - يرون أنهم قد أدوا ما عليهم من حق البيان إذا أداروا هذه الجمل والألفاظ التي كانوا يديرونها على نحو من البديع مألوف ، فيه جناس وطباق ، وفيه استعارة ومجاز ، وفيه إشارة ورمز إلى أنحاء من المعنى تخطر لهم ، وقل أن تخطر لغيرهم من الناس . وكان الناس يطمثون إلى هذا النحو من الأدب تقبل عليه الخاصة وتنصرف عنه العامة إلى أزجالها ومواويلها ، وإلى قصصها وأحاديثها . وكانت الحياة الغربية الجديدة تتخلص إلى مصر وسوريا في شيء من الرفق والدعة حيناً ، وفي شيء من العنف والشدة حيناً آخر . وما هي إلا أن اجتهد هذا القرن التاسع عشر

حتى كانت الحياة الغربية قد وصلت الى طائفة من الناس فأثرت
بعض التأثير في عقولهم ، وعجزت عن أن تؤثر في شعورهم
وعواطفهم ؛ فكانت حياة عقلية فيها شيء من الجدّة ، وفيها
ميل الى الخروج على القديم . وكان اندفاع يختلف قوة وضعفاً
الى العلم باختلاف الظروف وأطوار الحياة الفردية والاجتماعية ،
وأنشئت مدارس وظهرت صحف وترجمت كتب ، ولكن
الأدب ظل كما هو قديماً أو متين الاتصال بالقديم . وظلت
لغة الشعر والنثر كما كانت ، قريبة الى العامية ، متأثرة بفنون
البيان والبديع ؛ حين تحاول البعد عن هذه اللغة العامية ، بينما كان
الطب وغيره من العلوم والفنون الحديثة يتطور مسرعاً الى التجديد .
ولكن المطبعة أخذت في هذا العصر تحدث في مصر
والشرق أثراً كالذي أحدثته في أوروبا إبان النهضة الأوروبية
منذ قرون ، فظهرت كتب قديمة في الدين والأدب واللغة
والنحو وما إليها ، وعرف الناس أن حظ اللغة العربية من
انتاج العقل والشعور والبحث والانفعال أكثر مما كانوا
يظنون ، وأن وراء هذه الكتب الجامدة المعدودة - التي كانوا
يستظفرونها في الأزهر - كتباً أخرى كثيرة ، فيها حياة وقوة ،
وفيهما جمال عقلي وفني لم يكن لهم به عهد من قبل . فأخذوا

يقرأون ، وماهى إلا أن تأثروا بما كانوا يقرأون ، وماهى إلا أن ظهرت آثار هذه القراءة فى طريقتين متوازيتين ولكنهما على ذلك مختلفتان ، ظهرت هذه الآثار فى الأزهر حين عرفت الكتب القديمة فى اللغة والدين ، وفى التفسير والحديث ، والكلام والفلسفة بنوع خاص . فاضطرب ايمان الأزهرين بالكتب القائمة والعلم المألوف ، وأخذوا فى ثورة - على تلك النظم وهذا العلم - لم تزل قائمة ، ولم تظهر ثمرتها فى الأزهر بعد . وظهرت بعيداً عن الأزهر فى أذواق الكتاب والشعراء وطائفة من القراء ، حين قرأوا طائفة من الشعر القديم جاهلية وأموية وعباسية . وحين قرأوا طائفة من كتب الأدب التى ظهرت أيام العباسيين . فرأوا فى هذا كله قرباً من الطبيعة ، وبعداً من التكلف ، ورأوا فى هذا كله حياة للحس والعاطفة والعقل ، وأحسوا بُعد ما بين هذا النحو من الأدب الحى وبين ما ألفوه من هذا الأدب الميت ، كما أحسوا أن هذا الأدب القديم الحى أقرب إلى نفوسهم ، وأقدر على تمثيل عواطفهم ، وتصوير شعورهم من هذا الأدب الجديد الميت ، الذى لا يمثل الاقدرة أصحابه على جمع الألفاظ وتفريقها ، والملاءمة بينها حسب طرائق البديع ، دون أن تمثل هذه الألفاظ المجموعة أو المتفرقة

والمثلثة أو المختلفة حركة قلب من القلوب ، أو شعور نفس من النفوس ، ودون أن تتصل هذه الألفاظ بقلوب القراء و نفوسهم ، إذ كانت لم تصدر عن قلوب الأدباء ولا نفوسهم . فأخذ الذوق يتغير ، وكان تغيره قوياً ؛ ظهر في مظهرين مختلفين : أحدهما إشار اللغة العامية على لغة الأدب العصري ، والآخر إشار اللغة القديمة والأساليب القديمة على لغة هذا العصر وأساليبه . ورأينا رجلا كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسي ، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه ، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوى ، ورأى أن الأدب العصري أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسي الحى فيترجم لقومه ، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل مولير في الزجل العامى لا فى الشعر العربى . ورأينا شعراء يتحللون من قيود البديع وينصرفون الانصراف كله عن الفنون التى ألفها الشعراء فى عصرهم ، ثم يفترقون فمنهم من يتجه الى اللغة العامية فاذا هو ينظم فيها الزجل والموال ، ومنهم من يتجه إلى اللغة العربية القديمة فاذا هو ينظم فيها الشعر متأثراً شعراء الجاهلية والاسلام والعصر العباسى . وكان النثر يساير الشعر فى هذه الحركة ولكن تطوره كان بطيئاً : كان أبطأ من تطور الشعر ، فكان الكتاب يعتمدون على اللغة

العامة ، وكانوا يعتمدون على اللغة القديمة الفصحى ، ولكنهم كانوا يجدون مشقة شديدة في التخلص من قيود السجع والبديع ، ومن ضروب خاصة فرضت عليهم في التعبير فرضاً فلم يكن اطراحها يسيراً عليهم .

كذلك ظهر شعر البارودي آخر القرن الماضي وأول هذا القرن ؛ عربياً فصيحاً حراً طليقاً ، بينما كان نثر الشيخ محمد عبده مضطرباً بين فصاحة النثر القديم وركة النثر الحديث ، متردداً بين حرية القدماء ورق المحدثين . ورأينا المتأخرين المحافظين في النثر قد عمروا حتى أول هذا القرن ، ولم يخلصوا من قيد السجع والبديع الا بعد أن طغى عليهم سيل هذه النهضة الحديثة التي ظهرت عنيفة بعد الحرب الكبرى . وما نزال نرى الى الآن طائفة من الكتاب النثرين قليلين ، ولكنهم موجودون يكتبون فيسجعون ويخضعون لقيود البديع وأغلاله خضوعاً منكراً ، بينما أفلت الشعراء إفلاتاً تاماً من قيود البديع وأغلاله ، فلا نكاد نرى شاعراً مصرياً في هذا العصر يتقيد به أو يخضع له ..

تغير الذوق الأدبي إذن بفضل المطبعة ، واندفع الكتاب والشعراء الى نحو آخر من النثر والشعر لم يكن مألوفاً من قبل ، ولكن الكتاب والشعراء اندفعوا في طريقين متعاكستين

تعاكساً تاماً. فأما الكتاب فجروا إلى الأمام وتخلف منهم فريق،
وأما الشعراء فجروا إلى وراء، ولم يكد يتخلف منهم أحد.
ومن هنا كان النثر العربي في هذا العصر جديداً كله أو كالجديد،
وكان الشعر العربي في هذا العصر قديماً كله أو كالقديم. ومن
هنا كثرت معارضة البارودي وشوقي وصبري وحافظ لفحول
الجاهلية والاسلام في الشرق والغرب، ولم يكثر بين الكتاب
النثرين من تأثر بعبد الحميد أو ابن المقفع أو الجاحظ، فان
وجد منهم من تأثر بهؤلاء الكتاب فهم قليلون، وتأثرهم ضيق
محدود، لا يلبث أن يزول ويقوم مقامه تأثر بكتاب آخرين
ليسوا من العرب وآدابهم في شيء.

وجد بين الكتاب والخطباء في هذا العصر من حاول أن
يكون جاحظي النزعة أو مقفعي الأسلوب، أو مقتدياً بعلي وزيد
والحجاج في الخطابة، ولكن هذه المحاولة كانت طوراً من
أطوار حياتهم الفنية لا أكثر ولا أقل، فما لبثوا أن اندفعوا
في تقليد الكتاب الغربيين والخطباء الغربيين، فبعد الأمد
بينهم وبين مثاهم القديمة. ولم يوجد أو قل لم يكن يوجد بين
الشعراء من حاول أن يتأثر فككتور هوجو أو لامارتين أو
بيرون أو جوت، بل في الأمر شيء من العجب فبين كتابنا

الناثرين من تأثروا هؤلاء الشعراء الغربيين ، وحاولوا تقليدهم في النشر كما حاولوا تقليد الكتاب والخطباء من أهل الغرب . ولعل من الخير والحق أن ننصف الشعراء فنلاحظ أنهم كانوا مضطرين إلى أن يتأثروا بالقديم أول الأمر ، لأن هذا التأثير بالقديم في نفسه دليل على الحياة والقوة والقدرة على البقاء والجهاد . هو دليل على أن لهذا الأدب العربي ماضياً خصباً فيه غناء وفيه قدرة على الحياة ومغالبة العصور ، وفيه قوة على أن يعيش ويعبر بأساليبه وأنماطه القديمة عن طائفة من أنحاء الحياة الجديدة مضت بينه وبينها قرون طوال . ثم إن الكتاب والخطباء كانوا يحكم فن الكتابة والخطابة نفسه متصلين بالحياة الاجتماعية اليومية ، وحياتنا الاجتماعية اليومية متطورة سريعة التطور متحركة قوية الحركة ، فلم يكن بد للكتابة والخطابة من أن تتبعها في تطورها السريع وحركتها القوية ، بينما أرادت حياتنا الأدبية أن يكون الشعر زينة ولهواً لا تتصل بحياة اليوم ، ولا تظهر إلا من حين إلى حين عندما تدعو إلى ظهورها حاجة قوية ، أو ضرورة ماسة . فالشعر غير مكره على السير السريع ، ولا على الحركة الحثيثة ، فليس غريباً أن يسرع النشر ويبطئ الشعر .

نعم ، ولكن النثر لم يدفعه الى السرعة اتصالنا بحياتنا الاجتماعية اليومية وحده ، وإنما دفعه الى هذه السرعة أيضاً نشاط الكتاب ، واتصالهم بحياة الشرق والغرب ، وانصرافهم الى القراءة والجد وحرصهم على التأثير في نفوس القراء ، بل حرصهم على السيطرة على هذه النفوس . كما أن الشعر لم يضطره الى البطء بعده عن الحياة الاجتماعية واليومية وحده ، وإنما اضطره إليه أيضاً ما أشرت إليه - في غير هذا الموضع - من كسل الشعراء وفتورهم ، وانصرافهم عن القراءة ، وتعلقهم بالخيال وحده ، وافتتانهم بالقديم وازدراؤهم للجدید .

ومهما تسكن الأسباب التي دعت إلى رقي النثر وإسراعه في هذا الرقي ، وإلى جمود الشعر واستمساكه بهذا الجمود ، فإن هناك حقائق أدبية واقعة ، لا سبيل الى الجدل فيها ، وهي أن نهضتنا الأدبية إنما استمدت روحها وحياتها من القديم قبل أن تستمد من الجديد ، وأن نهضتنا الشعرية ظلت إلى الآن قديمة في نشأتها وروحها وغايتها ؛ بينما تطورت نهضتنا النثرية ، فلم تعتمد على القديم الا ريثما ينبت في جناحها الريش . فلما استوثقت من جناحها طارت مستقلة ، فبلغت من الرقي أمداً بعيداً .

وإذن ، فعندنا كتاب مجددون ، وعندنا كتاب أحيوا النثر القديم . وللكتاب فضلان : فضل هذا التجديد الذي لم يكن ، وفضل هذا الأحياء لما كان قد عثت به الزمان . وعندنا شعراء ولكنهم لم يجدوا شيئاً ، ولم يتكروا ولم يستحدثوا ، وإنما اكتسبوا شخصيتهم من القديم ، واستعاروا مجدهم الفني من القدماء ، فليس لهم إلا فضل واحد هو فضل الأحياء . وما زال ينقصهم فضل آخر هو فضل الانشاء والابتكار .

وكل هذه الحقائق واضحة لمن يلم بالأدب المصرى الحديث الإمامة بحملة . ولكن في مصر طائفة من الأدباء ، لا يريدون أن يطمئئوا إليها أو يعترفوا بها ، يشق عليهم أن يقال : ان ليس لهذا العصر شعراء في مصر . وكيف لا ! وفي مصر أمير الشعراء ، وكبير الشعراء ، وشاعر النيل ، وشاعر القطرين ، وشاعر العرب ، وما شئت من هذه الأسماء والألقاب !

وليس من شك في أن هؤلاء الأدباء معذورون ، فهم بين جاهل للمثل الأدبي الأعلى ، وبين متأثر بالوطنية ، يريد أن يكون وطنه صاحب الزعامة الأدبية في الشرق من جهة ، وأن يثبت للبلاد الغربية في الجهاد من جهة أخرى . وكل هذا حسن ، أو كل هذا محتمل ، ولكن هذا شيء والحقائق الواقعة شيء .

آخر . ولا بد من أن يقتنع الأدباء جميعاً بأن ليس في مصر
شعر خليق أن يسمى هذا الاسم . ولا بد من أن يتكون في
مصر رأى عام في الأدب يدفع الى الحرية الأدبية ، كما تكون
فيها رأى عام في السياسة يدفع الى الحرية السياسية . وكم
أكون سعيداً إن تناولت شعر شعرائنا النابهين فدرسته درساً
حراً مفصلاً بريئاً وأدّى هذا الدرس الى تكوين هذا الرأى
العام الأدبى من بعض الوجوه .

— ٢ —

مقدمات

بين يدي منذ أيام دواوين شعرائنا الثلاثة ، الذين اتفق
الناس أو كادوا يتفقون على أنهم أعلام الشعر العربى في هذه
الأيام ، وهم شوقى أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل
ومطران شاعر القطرين .

وقد كنت أمنى نفسى ساعات أختلسها من حين إلى حين
لأنفقها مع هؤلاء الشعراء مرتاحاً اليهم ملتمساً عندهم هذا الجمال
الفنى الذى يعوزنا في حياتنا اليومية . وما زلت أمنى نفسى هذه
الساعات فى إخلاص وحرص . وستظل دواوينهم بين يدي
حتى أظفر منهم بهذه اللذة التى يلتمسها الناس عند الشعراء

ولك على ألا أكون أثراً ولا بخيلاً ، وأن أشركك فيما أجد
عندهم من متعة ، على أن أشركك أيضاً فيما أصادف عندهم من
نبو أو تقصير .

أما اليوم فقد حيل بيني وبين ما كنت أريد لأنني صادفت
في أول هذه الدواوين مقدمات أحببت أن أقرأها فقرأتها ،
ووجدت في قراءتها لهواً ومتاعاً صرفني عن شعر الشعراء . وليس
في ذلك شيء من العجب ، فقد كتب المقدمة لديوان شوقي صديق
هيكلي ، وأنا كلف بما يكتب هيكلي ، مفتون بقراءته والنظر فيه
وتقريظه ونقده ؛ جاداً مرة ، وملكاً مرة أخرى . كلف بما
يكتب هيكلي كلني بالتحدث إلى هيكلي نفسه . وأنا حين أنقده
أو أقرظه لأسلك معه إلا الطريق التي أسلكها حين أتحدث
إليه : طريق فكاهة يمازجها الجد الذي لا يخلو من مرارة تحمله
أحياناً على أن يقول : أما إنك ما زلت شيخاً ! وقد خيل إلى
أنني أذكر أن الناس كانوا يضيفون المقدمة التي صدر بها ديوان
حافظ إلى كاتب معروف كان في وقت من الأوقات زعيماً
للكتاب الذين عاصروه ، ثم انصرف عن الكتابة فنسيه
الناس ، ونسي هو نفسه أيضاً .

أما مقدمة ديوان مطران فقد كتبها مطران نفسه . وهو

بين هؤلاء الثلاثة الشاعر الوحيد الذى غنى بشعره، ووجد فى نفسه الشجاعة على تقديمه للقراء . فأما الشاعران الآخران فقد آثرا أن يستظلا بغيرهما من زعماء النثر . وربما كان لهذا الفرق بين مطران وصاحبيه شئ من الخطر ، وربما كان هذا الفرق الذى يظهر ضئيلاً عنواناً لفرق آخر عظيم بين شعر مطران وشعر صاحبيه .

فالحق أنك لا تعرف مذهب شوقي وحافظ فى الشعر الا اذا قرأت شعرهما واستقصيته ، واستخلصت هذا المذهب من قصائدهما ومقطوعاتهما ، بل من أبياتهما المتفرقة . ولكنك لا تقرأ بيتاً واحداً من شعر مطران فى هذا الديوان الا بعد أن تكون قد عرفت مذهب الرجل فى الشعر، وعقيدته الفنية، وأسلوبه فى فهم الجمال الأدبى وعرضه على الناس .

وبينما تلتبس مذهب شوقي فى مقدمة هيكل ، ومذهب حافظ فى مقدمة ذلك الكاتب المعروف فلا تجد هما أصلاً، أو تجد هما فى شئ من الغموض والمواربة والتأثر بنفسية الكاتبين . ومزاجهما ومذهبهما الأدبى ؛ تجد مذهب مطران فى الشعر واضحاً جلياً ، يعرضه عليك هو فى صراحة وإخلاص ، لا يكدرهما الا هذا السجع المتكلف ، فمطران إذن حر فى شعره ، ولكنه فى نثره لم يضع عن نفسه الأغلال بعد .

وقد قرأت مقدمة هيكل ، وكنت أظن أنني سأظفر
فيها بمذهب شوقي في الشعر ، وأنا أعلم أن هيكلًا من أقدر
الناس على التحليل وأبرعهم فيه . قرأت له ما كتب عن جان
جاك روسو وأنا تول فرانس وييرلوتي ، فلم أشك في أن كثيرًا
من الناس يستطيعون أن يقنعوا بقراءته عن قراءة هؤلاء الكتاب
أنفسهم . ولكني لم أكد أظفر بشيء صريح من العقيدة
الشعرية لشوقي فيما كتب عنه هيكل ، أترى أن مصدر ذلك
أن ليس لشوقي عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها ؟ أم
ترى أن مصدر ذلك أن هيكلًا لم يعن بشعر شوقي عنايته بنثر
أنا تول فرانس وجان جاك وييرلوتي ؟ أم ترى أن هيكلًا قد
عجز عن فهم شوقي ، ووفق إلى فهم هؤلاء الكتاب الفرنسيين ؟
أم ترى أن هيكلًا قد كتب مقدمته هذه عن طمع في الراحة
وفراغ البال ؟ أم ترى أن كل هذه الأسباب قد اشتركت
وتظاهرت فقصرت بمقدرة هيكل عن أن تعرض العقيدة
الشعرية لأمير الشعراء في شيء من الوضوح والجلاء ؟

الواقع أنني لا أعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة في
الشعر ، وما أرى أنه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة ،
وما أرى أنه فكر في الشعر إلا حين يقوله ، إنما هو - كما يقول

هيكل في شيء من الدهاء - مجدد حيناً ومقلد حيناً آخر . وهو في تجديده وتقليده لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة ، وإنما يتأثر بالساعة التي يتهيا فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذي يقرض فيه الشعر ليس غير . والواقع أيضاً أنا مكرهون على أن نعنى بأناتول فرانس وجان جاك وييرلوتي وأمثالهم أكثر مما نعنى بشوقي وأمثاله ، لأننا نجد عند هؤلاء من اللذة والغناء ما لا نجده عند شاعرنا المجيد ! ولأن نفوسنا تتصل بنفوس هؤلاء الكتاب والشعراء من الفرنجة أكثر مما تتصل بنفس شاعرنا العربي المصري . وأنا أزعم أن هيكلاً لو كتب عن بودلير أو فرلين أو پول فاليري من الشعراء الفرنسيين لوفق أكثر من توفيقه حين كتب عن شوقي ! وقد أقام الدليل على ذلك في غير شك حين كتب عن شكسبير فأغنى وأمتع .

ومن السخف أن نقول إن هيكلاً يتقن الفرنسية والانجليزية أكثر مما يتقن العربية ، فويل للعربية إذا لم يتقنها هيكلاً ! وإنما الحق أن شعر شوقي لم يستطع أن يلهم هيكلاً ما استطاع أن يلهمه نثر الكتاب الفرنسيين ، وشعر الشاعر الانجليزي الذين أشرنا إليهم من قبل .

والحرج ظاهر في مقدمة هيكلاً كلها ، وإن شئت فقل إن

المجاملة ظاهرة . فأنا أراه يستغرق من هذه المقدمة جزءاً ليس
 بالقصير ليبسط لنا رأياً في ظاهرة وجدها في شعر شوقي، وهي :
 أن شخصية الشاعر ثنائية، فهو مؤمن، وهو محب للحياة ولذاتها،
 أو قل : هو زاهد ومستمتع معاً . وقد حاول هيكمل أن يعامل
 هذه الثنائية فكيد وجد ولعله وفق، ولكنه أعرض عن شيء
 كنت أحب ألا يعرض عنه، أعرض عن الصناعة الشعرية
 التي تظهر للشعراء شخصيات مختلفة جداً ولا سيما في أدبنا
 العربي العصري، الذي لا يمثل نفس الأديب لأنه ليس طبعياً،
 وإنما يمثل تكلفه ورغبته في إرضاء القراء فهو لاء الشعراء الذين
 ينظمون في الحكم والأخلاق إنما يريدون أن يتأثروا المتنبي
 وأبا العلاء، فشخصيتهم هذه الحية الزاهدة شخصية مصنوعة،
 كما أنهم حين يتغنون في الخمر، ويتهاكون على وصفها، إنما يريدون
 أن يتأثروا أبا نواس والأخطل، فشخصيتهم هذه الماجنة شخصية
 مصنوعة، كما أنهم حين يمدحون النبي إنما يريدون أن يتأثروا
 صاحب البردة، فشخصيتهم هذه مصنوعة . وهم لا يسلكون
 طريقاً من طرق الشعر، ولا يتعاطون فناً من فنون الشعر
 إلا مقتادين مقلدين، فهم يصنعون شخصياتهم التي تراها في
 شعرهم، هم يخفون بها شخصيتهم الأولى التي فطرها الله، وهم

يهذا التكلف يحاولون بينك وبين الوصول اليهم وفهمهم كما هم في حياتهم العادية . ومن هنا كان من الحق على مؤرخ الآداب ألا يغلو في اتخاذ ما يصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن يقدر تأثير التكلف والتصنع والتقليد وتملق الجمهور والأفراد في هذه المرأة .

فازدواج الشخصية الذي يلح به هيكل في شعر أمير الشعراء لا يدل في حقيقة الأمر الا على أن أمير الشعراء يقلد المؤمنين والمستمتعين كما يقلد غيرهم من أصحاب الشعر .

أما المقدمة التي صدر بها ديوان حافظ فمريضة لأنها لا تشير الى حافظ ، ولا الى شعره بكثير أو قليل ، وإنما هي كلام في الشعر من حيث يفهمه صاحب المقدمة ، وهو يفهمه على الطريقة العتيقة الصرفة . وحسبك أنه يرى الشعر : « ظرف الحكمة ، ومسرح الخيال ، ومعنى الفصاحة ، وخدر البلاغة ، ووعاء الحقيقة » فان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئاً فأنت موفق سعيد ! أما انا فلا أرى فيه الاثرثرة وتكراراً . والمقدمة كلها على هذا النحو كلام مرصوف ولفظ مصفوف ، لازمة له الا أنه متنى مختار .

وأما مقدمة مطران فقصيرة ولكنها متعبة ممتعة في وقت واحد : متعبة لما فيها من السجع الذي لا رشاقة فيه ولا ظرف ولا موسيقى ، وممتعة لأن صاحبها أراد أن يقول شيئاً فقال له هذا الشيء ليس بالتافه ولا باليسير ، وإنما هو شيء قيم له خطره وأثره البعيد . فمطران تأثر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد إليه ، وحاول أن يعود إليه مجدداً لا مقلداً ، وهو ينبئك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم لتبين به مقدار ما وصل إليه من التجديد . وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد ، وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده ، وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف ، وإنما يعلن ثورته على القديم ، واغتباطه بالعصر الذي يعيش فيه ، وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأسايلها في حرية كما يتأثر القدماء في إطلاق فطرتهم على سجيتهما ، يكظم فطرته ولا يغشيهما بالاستار الخداعة الخلابة . وهو فني له في جمال الشعر مذهب ان لم يكن واضحاً كل الوضوح ، ولا مبتكراً كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم ، لأنه يمثل شيئاً من

المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذى
تستقل فيه الأبيات ، وتتنافر وتتدابر . ويريد أن تكون
القصيدة وحدة ملتزمة الأجزاء ، حسنة التأليف فيما بينها . ثم
هو فوق هذا كله ممتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفا ، ولا
عقلا صرفا وإنما هو مزاج منهما .

الحق انى معجب بمقدمة مطران ، لا أكره منها الا سجعها
أرأيت أنى لم أخطئ حين أخرت النظر فى شعر الشعراء ،
ووقفت عند هذه المقدمات وقفة قصيرة ! ولكنك توافقنى
على أن هذه المقدمات لا تعطينا شيئا فى جملةا ، فهى تمثل لنا
أذواق الذين كتبوها دون أن تمثل لنا مع ذلك الذوق الأدبى
العام فى هذا العصر ، ودون أن تعرض علينا ما يراه هذا
الذوق الأدبى العام مثلاً أعلى للجمال الفنى فى الشعر ، ولكن
فى مصر شعراء غير شوقي وحافظ ومطران ، لهم دواوين
ولدواوينهم مقدمات ، فمن تدرى لعلنا نظفر فى دواوينهم
ومقدماتهم بما لم نظفر به فيما قرأنا الآن ! .

المثل الأعلى

« رد »

صديقي ...

رأيتني أردد في هذه الأيام ذكر المثل الشعري الأعلى ،
والذوق الأدبي الحديث ، والمذاهب الفنية للشعراء ؛ فأنكرت
هذه الألفاظ ، أو لم تتبين ما قصدت بها إليه فيما تقول . فأنت
تسألني عنها : ما هي ؟ وأين تلتمسها ؟ وكيف السبيل الى تحقيق
معناها ؟ وعجيب منك هذا السؤال ، وما أنت بالغافل ولا
المحدث في الأدب ، وقد نشأت فيه ولما تبلغ الخامسة عشرة
وأراك الآن قد نيفت على الأربعين ، ان لم يكن يؤذيك أن
يعرف الناس سنك ! نشأت فيه ولما تبلغ الخامسة عشرة ،
وسلكت فيه طرقاً مختلفة ، وبلوت منه فنوناً متباينة ؛ بلوت العربى
القديم ، وبلوت أدب العباسيين والأندلسيين ، وأتقنت الأدب
الحديث في مصر وغير مصر ، وتذوقت أدب اليونان والرومان ،
واستمعت بأدب الفرنسيين والانجليز . وكنت وما زلت
أجد لذة قوية حين أسمعك تردُّ شعر المحدثين إلى أصوله القديمة .

مفتناً في ذلك غواصاً على غرائبه - كما يقولون - وكنت وما
زلت أجد لذة قوية حين أسمعك تعجب ببيت من الشعر العربي
أو قصيدة من الشعر الأجنبي فتعرض ما فهمما من الجمال عرضاً
يزيده بهاء وروعة . وهأنذا الآن تسألني عن المثل الشعري
الأعلى ، وعن الذوق الأدبي الحديث ، وعن مذاهب الشعراء
في الشعر؛ سؤال من لاحظ له من فن ، ومن لم يزاول الدراسة
الأدبية قليلاً ولا كثيراً .

ما أرى إلا أنك عابث صاحب لهو ودعابة ، أو ما كر
صاحب كيد ، تريد أن تشير نحواً من البحث ترى في إثارتك
شيئاً من النفع . فان تكن عابثاً فأجب إلى بعثك ، وان تكن
ما كراً فأهون على بمكر . ولو أن لي من الوقت سعة لشاركتك
في هذا العبث أو للقيت مكرراً بمكر ، وكيدا بكيد .

تسألني عن المثل الشعري الأعلى ما هو؟ فسل عنه نفسك
حين تقرأ قصيدة للاختل أو لأبي نواس أو لمسلم بن الوليد
أو للبارودي أو لشوقي . وسل عنه نفسك حين تنظر في
شعر فرجيل أو حين تنشده شعر فيكتور هوغو . سل نفسك
عن هذا المثل الشعري الأعلى حين تقرأ شعر هؤلاء القدماء
والحديثين فتجد عند أوائك وهؤلاء لذة مختلفة في طبيعتها

تتفاوت قوة وضعفاً ، ويتباين أثرها في نفسك تبايناً غريباً .
 فالناس يخطئون حين يظنون أن أصحاب الجديد لا يرون
 اللذة الفنية الا في الجديد ، وهم مخطئون أيضاً حين يرون أن
 أصحاب القديم لا يجدون اللذة إلا في الشعر القديم ، فأنا من
 أصحاب الجديد ، ومن أشدهم إلحاحاً في تأييده والدعوة اليه ، ولست أكني
 على ذلك أجد في قراءة القديم لذة لا تعادلها لذة ومتاعا ليس
 يشبهه متاع . ذلك لأن القديم والجديد لم يستمدا جمالهما الفني
من القدم والجدة وحدهما ، وإنما استمداه من هذا الروح الخالد
الذي يتردد في طبقات الانسانية كلها ، فيحل في كل جيل منها
 بمقدار . وهو يتشكل في كل جيل بالشكل الذي يلائمه ، ويتصور
 في كل بيئة بالصورة التي تناسبها . وهو من هذه الناحية مصدر
 وحدة وفرقة للانسانية : مصدر وحدة لأنه واحد يجمع الناس
 مهما يختلفوا على الإعجاب والشعور باللذة القوية . ومصدر
 فرقة لأن له من أشكال الأجيال والبيئات المختلفة ما ينوعه
 ويخيل اليك أنه كثير . نعم ، العربي والفرنسي والانجليزي
 يشعرون جميعاً باللذة حين يقرأون خصوصاً أخيل وأجاممنون
 لا يحول اختلافهم الجنسي بينهم وبين هذا الإعجاب وهذا
 الشعور باللذة ، ولا يكتفون على اشتراكهم في الإعجاب واللذة

يختلفون في تذوقهم لهذا الشكل الخاص الذى يتشكل به الجمال
الفنى فى الالياذة . هذا يرضاه وهذا ينبو عنه ، وهذا يقف منه
موقف غير المكثرت . ذلك لأن بين هذا الشكل وبين نفوس
هؤلاء الناس صلة تختلف قرباً وبعداً ، وتتفاوت قوة وضعفاً
باختلاف الجنسيات والبيئات والعصور . ففى الجمال الفنى كما
ترى وكما يقول الفلاسفة وحدة وكثرة . فأما الوحدة فهى
جوهره ، وأما الكثرة فهى أعراضه . ولكن طبيعة الانسان
قد أرادت ألا توجد هذه الوحدة من حيث هى منفصلة عن
أعراضها وعن مثلها المختلفة التى تصل بينها وبين نفوسنا ، فلا
بد لهذا الجمال من لغة تعبر عنه ومن صورة تحتويه ، واللغات
مختلفة ، والصور متباينة .

واذن فيخيل الى ، وأحسبك كنت ترى معى هذا رأى ، أن
المثل الأعلى فى الفن إنما هو هذا النحو الذى يحقق هذا الجمال
الفنى الخالد الواحد فى أحسن صورة وفى أشدها بالذوق
اتصالاً وللنفس ملائمة .

فالالياذة كانت مثلاً أعلى لليونان لأنها حققت لهم هذا الجمال
فى أجمل صورة يونانية ممكنة ، لامت نفوسهم واتصلت بأذواقهم ،
ولكنها لا تحقق لنا نحن المثل الأعلى ، لأنها على حظها من

الجمال الخالد لا تتصل في شكلها وصورتها بنفوسنا وأذواقنا؛ لغتها ليست لغتنا، وخيالها لا يتصل بحياتنا الحاضرة، فنحن نشعر حين نقرأها بالجمال، والكننا نشعر شعوراً ناقصاً أقل من شعور اليونان القدماء به حين كانوا يقرأون الإلياذة.

وشعر الأخطل وأبي نواس حين يجيدان؛ يمثل لنا هذا الجمال الخالد أيضاً، ولكن هذا التمثيل وإن كان أقرب إلى نفوسنا وأذواقنا من الإلياذة لا يلائم هذه النفوس والأذواق من كل وجه؛ فلغته ليست لغتنا وإن قربت منا، وخياله ليس خيالنا وإن كان بينه وبيننا سبب. ونحن نجد في هذا الشعر من اللذة ما يجده الفرنسيون مثلاً في شعرهم أثناء القرون الوسطى، أو في شعر فرجيل وهوراس.

وما أظنك تنكر أن الفرنسيين على أعجابههم بفرجيل وهوراس يؤثرون عليهما كورنى وموليير وراسين. وهم يؤثرون الآن على هؤلاء أنفسهم شعر القرن التاسع عشر وتمثيله، لأن هذا الشعر والتمثيل أقرب إلى نفوسهم العصرية مما كان في القرن السابع عشر من شعر وتمثيل.

للقديم إذن جماله نشعر به نحن شعوراً منقوصاً، وكان القدماء يشعرون به شعوراً كاملاً. ويستطيع العلماء الذين

يقفون أنفسهم على الدرس ويتعمقون فيه أن يجعلوا أنفسهم
 قدماء يتقنون لغتهم وحياتهم وظروفهم المختلفة ، فيشعرون من
 الجمال بما كانوا يشعرون به . ولكن هذا على صعوبته وعسره
 لم يقسم ولا ينبغي أن يقسم الا لطائفة قليلة جداً من الناس .
 وأنت تسرف حين تطلب الى عامة المتأديين أن يذوقوا شعر
 الأخطل وجريز كما تذوقه أنت ، ويسرف أصحاب اليونانية من
 الفرنسيين والانجليز حين يطلبون الى جمهور المتأديين من قومهم
 تذوق هوميروس وبندار كما يتذوقونه هم . ولكننا جميعاً نصيب
 ونقصد حين نطلب الى المتأديين المعاصرين أن تتقارب أذواقهم
 في فهم الأدب المصرى الحديث والاعجاب به ، ولا يسرف
 الممتازون من أدباء الفرنسيين والانجليز حين يطلبون الى عامة
 المتأديين من قومهم أن يذوقوا شعراءهم المعاصرين كما
 يذوقونهم هم أو على نحو من ذلك قريب .

نعم هذا حق في نفسه ، ولكنه ليس حقاً حين نريد أن
 نلائم بينه وبين الحقائق الواقعة في مصر . ذلك لأن الشعر
 المصرى الحديث لا يلائم الذوق المصرى الحديث ؛ فهو من
 قسمة العلماء لا من قسمة المتأديين عامة . هو قديم في صورته
 وشكله ولغته كشعر الأخطل وجريز والفرزدق فيفهمه ويذوقه

الذين قدر لهم أن يفهموا شعر الأخطل والفرزدق وجريز،
فأما الذين لم يقدر لهم فهم هذا الشعر ولم يطلب اليهم إلا أن
أن يذوقوه ذوقاً ناقصاً، فلا ينبغي أن يطلب اليهم إلا أن يذوقوا
هذا الشعر الحديث ذوقاً ناقصاً أيضاً .

بلى ، هناك فرق بين الشعر المصرى الحديث والشعر العربى
القديم، فهو يشبهه فى الصورة والشكل، ولكنه يخالفه فى الحقيقة
والجوهر . هو يشبهه فى اللغة وأنحاء القول والتعبير وضروب
التخييل والتصوير، ولكنه لا يشبهه فى الموضوع ولا فى
فى الأغراض . واذن فلشعر القدماء معنى فى أذواقنا لأنه يمثل
حقيقة من الحقائق هى حياة القدماء ويمثلها بصورة تلائمها .
ولكن الشعر الحديث ليس له هذا المعنى، لأنه لا يمثل حياة القدماء
اذ هو لم ينشأ لتمثيلها، ولا يمثل حياتنا الحاضرة لأن لغته وشكله
وأنحاءه فى التمثيل والتصوير لم تنشأ لتمثيل هذه الحياة . وما أرى
انك نسيت ما كنا فيه من ضحك وأسى حين قرأنا منذ أعوام
قصيدة شوقى التى يصف فيها انتصار الترك على اليونان فى
آسيا الصغرى ، والتى يبدأها بقوله :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب !

نعم ضحكنا ، وأسبنا حين قرأنا هذه القصيدة . وأضحكنا
مطلعها قبل كل شيء ، فكم عجبنا من ذكر خالد ومقارنة مصطفى
كـال به ، حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابهين
في الحرب الأخيرة ، وحين كانت صور هؤلاء القواد النابهين
في الانتصار والانهزام تملأ النفوس إعجاباً ، وحين كان
الشرق في ذلك الموقف الذي كان ذليلاً يشوبه شعور بالعزة
وطموح إليها ، والذي كان أثراً من آثار هؤلاء القواد . ضحكنا
من قياس مصطفى كـال الى خالد بن الوليد .

والحق أنا لا نعرف أمدح شوقي مصطفى كـال حين قرنه
الى الفاتح العربي القديم ، أم ذمه ؟ !

ولم نكد نمضى في قراءة القصيدة حتى ازددنا إغراقاً في
الضحك والأسى ، وكنت تقول لى إن هذه القصيدة أصدق
دليل وأقواه على عجز القديم عن تصوير الحياة الحديثة وفشل
الشعر العربى العصرى عما قصد اليه من إمتاع النفوس
واشعارها لذة الجمال الفنى .

ولما فرغنا من قراءة القصيدة سألتنى ما رأيك فى هذه
القصيدة الطويلة ، التى تصف انتصاراً ضخماً بعد الحرب
الكبرى ، فلا تعرض فى وصفها الطويل المفصل للهدف ولا

للطيارة ولا للتنك ولا لغيرها من أدوات الحرب في العصر الحديث ، وإنما اكتفت بالخيول والسيوف والرمح والدرع ؟ !
وكنت تسألني ما رأيك في هذه القصيدة التي نريد أن ترفع مصطفى كمال إلى منزلة القواد العظام في العالم ، وانتصاره إلى منزلة الانتصارات العظمى في العصر الحديث فتشبهه وقائعه بيدر ؟
وما رأيك في هذه القصيدة التي أرادت أن تصف ابتهاج الترك خاصة والمسلمين عامة بهذا النصر ، فإذا هي تذكر اهتزاز دمشق واستيقاظ الأيوبيين فيها ، وتهنئتهم للحمدايين في حلب ؟ وكننت تقول حقاً لقد ضاق القديم عن أن يكون لباساً يتجلى فيه الجمال الفنى الحديث ؟

أحب أن تذكر ذلك ، فإن هذه الذكرى قد تنفع ، لأنها تختصر لك جوابى على سؤالك الذى تريد أن تعرف به ما المثل الأعلى للشعر .

المثل الأعلى للشعر هو هذا الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقاً فياً أخذوا بنصيبيهم النفسى من الخلود .

ولكنك ستسألنى : وما ذوق العصر ؟ وما قيمة الاتصال

بين الشعر والذوق العصري ؟ وكننت أحب أن أذكرك مجالس
أخرى كانت بيننا تجميعك على هذا السؤال . ولكن قوماً غيرك
يدعونني إليهم ولهم على مثل مالك من حق ، فالى وقت آخر .

— ٤ —

فى الذوق الادبى « رد أيضاً »

صديقى . . .

أعود اليك الآن ، بعد أن فرغت من درس فى الأدب
القديم ، أعجبنى موضوعه وأرضانى ما قيل فيه . أعود اليك الى
حيث تركتك منذ ساعات ، تسألنى عن ذوق العصر ما هو ؟ وما
الصلة بينه وبين الأدب ؟ وما الصلة بينه وبين المثلى الأعلى فى
الفن ؟ وأنا أتعجل هذه العودة اليك ليتصل آخر الحديث بأوله ،
وليكون هذا الكتاب تنمة للكتاب الذى أرسلته اليك ضحى
هذا اليوم .

وماذا تريد أن أصنع لك ، وقد قصرت ذاكرتك أو
تكلفت لها القصر ، ففسيت أو تناسيت ما كان لنا من مجلس
وما كان بيننا من حديث ؟ انك خليك أيها الصديق ألا تعتمد
على الذاكرة وحدها ، وأن تتخذ لنفسك هذه العادة التى لا بأس

بها: وهى تقييد الأحاديث العذبة اللذيذة القيمة ان صادقها فى يوميات تعود اليها من حين الى حين ، فتذكر نفسك وأصدقائك وظروفكما المختلفة، وتصل بينك وبين قديمك الخاص وتعينك على أن تتبع تطور عقلك وشعورك ، وانتقالها من حال الى حال وتأثرهما بالظروف المختلفة التى تحيط بهما وتعمل فيهما ، دون أن تحس أنت ذلك أو تلتفت اليه . وكيف تريد أن تقضى بين قديم الأدب وجديده ، وانت لا تستطيع أن تقضى بين قديمك وجديك ؟ لأنك لا تلتفت الى هذا القديم وذاك الجديد ، ولا تشعر باستحالة أحدهما الى الآخر فى ظل ما تخضع له من المؤثرات المادية والمعنوية !

أفهم أن تتطور وتستحيل ، وأن تستبدل رأياً برأى وأسلوباً فى الفن بأسلوب ، ولكنى أحب لك أن تشعر بهذا التطور وتقدر هذه الاستحالات وتحسب لهما حسابهما حين تكتب أو تتحدث ، فذلك خليك أن يدفع عنك ما قد تتهم به من التناقض والاضطراب ، وأنت الآن متناقض مضطرب بعض الشيء . واذا كنت أنا أفهم مصدر تناقضك واضطرابك لأنى أعرف من حياتك الخاصة ما لم يعرف غيرى . فليس الناس جميعاً مكلفين أن يعلموا أنك قضيت الصيف فى إيطاليا ، وكانت لك فيها

مواقف هزت قلبك بادىء الأمر هزاً رقيقاً، ثم أخذت تتخلص
إليه شيئاً فشيئاً حتى غمرته وعبثت به، ثم أخذت تتخلص عنه
قليلاً قليلاً حتى انجلت عنه وتركته فارغاً جافاً، يكاد يحترق من
الفراغ والجفاف، ثم عدت إلى مصر ذاهلاً مشرد الخاطر
مفطور القلب مضطرب المزاج، ثم عكفت على نفسك تمتحن
وتحلل فخرجت بشيء من الشك هو إلى اليأس أقرب منه إلى
الرجاء، وإذا أنت ترتاب بكل شيء، وتنكر كل شيء وتزدري
كل شيء. وما احسب أنك ستسترد حظك من اليقين والرضا
والأمل إلا أن تعود إلى إيطاليا، فلعل الله ~~أن~~ يجعل لك من
العسر يسراً، ومن الضيق سعة ومن اليأس أملاً. ولعل ابتسامة
عذبة في «تورينو» ترد إلى قلبك نضرة الأولى فتستأنف الحياة
والتفكير في جد وثقة واطمئنان، وترى في الذوق الأدبي
ما كنت تراه منذ أعوام أو شيئاً منه.

ليس الناس مكلفين أن يعلموا من أمرك هذا كله. ولو
قد حاولوا ذلك لضقت بهم وضاقوا بك. ولكنك انت
مكلف أن تعلم من أمرك هذا وأن تقدر أثره في حياتك العقلية
والنفسية معاً، بل في ذوقك بنوع خاص، فإن لذلك في ذوقك
أثراً غريباً. لقد كنت أراك قبل «تورينو» تقدر الأشياء كما

أقدرها ، وتشاركني في الرضا عن بعض الشعر والسخط على بعضه الآخر ، وتحب أن تقف معي موقفاً وسطاً بين أوائك المختصمين الفرنسيين الذين يرى بعضهم جمال الشعر في الموسيقى ، ويرى بعضهم الآخر جماله في المعنى ، وكنت تقول لي : وما يمنعنا أن نقف بين هؤلاء الناس ، ونرى جمال الشعر في التثام الموسيقي والمعنى جميعاً ؟ حتى اذا كانت تلك الليلة أخذت تصل الى منك كتب لا رأس لها ولا ذنب - كما يقول الفرنسيون - ثم لقيتك فاذا أنت قد تصوفت أو كدت ، واذا أنت لا تذوق من الموسيقى الا ألواناً خاصة تلائم مزاجك هذا المضطرب المحزون ، ولا تذوق من المعاني الشعرية الا ضروباً خاصة ، تلائم أملك هذا الضائع المشرّد .

صدقني أيها الأخ العزيز ، أنك تخضع الآن لأزمة نفسية عنيفة ، فما أجدرك أن تهتم رأيك في الناس والأشياء جميعاً ، لا تبتئس ولا تظهر هذا الغضب الذي هو أقرب الى الازعاج منه الى أي شيء آخر ، فأنا راض بمزاجك هذا المضطرب محب له ، لأنني أفهمه وأذوق ما يحدث عنه من الآثار ، ولأنني أشاركك في حب ما تحب من هذه الموسيقى وهذه المعاني التي تتصل بالماضي يائسة او كاليائسة من المستقبل .

ومهما أنس فاست أنسى أننا قد أعجبنا معاً إعجاباً لا حده بتلك
القطعة الموسيقية البديعة التي أوقع بها الموسيقى « ديبارك »
مقطوعة رائعة من شعر « بودلير » هي الذكرى . أحسنا
معاً أننا عشنا زمناً في ظل تلك الأروقة الواسعة ، التي كانت
تقوم على تلك الأعمدة الفخمة الضخمة ، والتي كانت تنعكس
عليها من شمس البحر ألوان لا تسكاد تحصى ، والتي كانت تخيل
إليك إذا أقبل الأصيل أنها أغوار من « البزلت » ...

نعم ، ورأينا معاً أمواج البحر الغنيفة المضطربة تعبت
بصور السماء ، وتمزج أصواتها الموسيقية القوية بلون الأصيل
الذي يعكر العين ... نعم ، وشعرنا معاً بهذه اللذة القوية الهادئة
في جو صفو وجلال لا حده ، وبين هؤلاء الاماء المتجردات
العطرات ، اللاتي كن يروحن عن جباهنا بسعف النخل ، واللاتي
لم يكن لهن من هم الا تعرف هذا السر المؤلم الذي كان يفنينا
قليلاً قليلاً . ذقنا معاً جمال هذا الشعر وانسجام هذه الموسيقى
واشتراكهما في تصوير هذا المثل الأعلى الذي نطمح اليه ،
فاذا لم نظفر به في حياتنا الحاضرة ، وقصرت بنا أجنحتنا عن أن
نطير اليها في المستقبل القريب او البعيد التمسناه في ماضينا ،
فاذا لم نظفر به ، وما أحرانا ألا نظفر به ! التمسناه عند أسلافنا

المترفين من أدباء اليونان والرومان وشعرائهم واستمتعنا به
كما كانوا يستمتعون به هم أنفسهم ، يوم كانوا يحيونه حياة فيها
الحق وفيها الخيال .

ذقنا معاً هذا الشعر وهذه الموسيقى ، وأنت متأثر بمزاجك
هذا المضطرب ، وأنا هادئ النفس فارغ البال ، فأنت ترى أن
اضطراب مزاجك لم يقطع ما بينك وبينى من صلة نفسية أو
فنية . وإذن فهوّن عليك ولا تخيل الى نفسك أنى ساخط أو
منكر لما أنت فيه ، إنما أنا رفيق بك حرب عليك أحب أن
تنسى «تورينو» أو أن تستأنف حياتك فيها إن وجدت الى أحد
الأميرين سييلا ، وأحب بنوع خاص أن تقدر أثر «تورينو» فيما
لك من رأى الآن فى المثل الشعري الأعلى ، وفى الذوق الفنى ،
وفى مذاهب الشعراء فى الشعر .

الذوق الفنى . . . لقد بعدنا عنه أو كدنا نبعد . ومع ذلك
فما كتبت اليك الآن إلا لأتحدث اليك فيه ، أولاًذكرك ما كان
بينك وبينى فيه من حديث . ألم تكن نتفق قبل «تورينو» على
أن هناك ذوقين فنيين ، لكل واحد منا حظ منهما يختلف قوة
وضعفاً ، ويتفاوت سعة وضيقاً باختلاف ما لشخصيته من
القوة والظهور . كنا نتفق على أن هناك ذوقاً فنياً عاماً يشترك

فيه أبناء الجليل الواحد في البيئة الواحدة وفي البلد الواحد ،
لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم
ويؤلف بينهم . وكنا نتفق على أن هذا الذوق يتسع ويضيق
ويقوى ويضعف : فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكاً قوياً ،
وهذا الاشتراك هو الذي يجمعهم على الإعجاب ببعض الآثار
الفنية دون بعض . وهم يشاركون فيه إلى حد ما جيرانهم
أهل الشام وفلسطين ، ويشاركون فيه إلى حد أضعف جيرانهم
من أهل إفريقيا الشمالية . ومن هنا يعجبون مع أولئك وهؤلاء
ببعض الآثار ، ويعجبون مع أولئك دون هؤلاء ببعضها
الآخر ، ويعجبون وحدثهم بطائفة من الآثار الفنية . وكنا
نتفق على أن هذا الذوق يضيق أحياناً ، ويتأثر في ضيقه هذا
بالظروف التي تحيط بالطبقات والجماعات . فأهل مصر على
اشتراكهم في هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت
بيئاتهم وجماعاتهم . فلا أهل الأزهر ذوق خاص يكادون
يستبدون به ، وقريب منه ولكنه يفارقه بعض الشيء ذوق
مدرسة القضاء ودار العلوم ، وللجامعيين ذوق خاص أو قل
أذواق مختلفة : ذوق يتأثر بالذوق الانجليزي ، وآخر يتأثر
بالذوق اللاتيني ، ذوق يتأثر بالعلم ، وآخر يتأثر بالأدب ، وثالث
يتأثر بالتاريخ ، ورابع يتأثر بالفلسفة ، وعلى هذا النحو . ثم كنا

تتفق على أن هناك ذوقاً آخر فنياً يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه مع ذلك متأثر بالشخصية الفردية، أو هو مظهر ومرآة يمثلها تمثيلاً صادقاً يستبد به الفرد، أو يكاد يستبد به لا يشاركه فيه أحد غيره. وكنا نتفق على أن هذين الذوقين هما اللذان يقضيان بأن القصيدة الشعرية الرائعة، تنشأ فنشترك في الإعجاب بها، أو قل في مقدار من الإعجاب بها عام، سواء أو كأنه سواء بيننا. ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها، أو بالبيت من أبياتها لا يستطيع أحد أن يشعر به ولا أن يقدره.

كنا نتفق على هذا كله، وكنا نتفق على أن الحياة الفنية إنما هي مزاج من هذين الذوقين، فيه الوفاق حيناً وفيه الصراع حيناً آخر. وكنا نتفق على أن هذا الذوق العام هو الذي يعطى الحياة الفنية حظاً من الموضوعية، وهذه الأذواق الخاصة هي التي تعطى الحياة الفنية حظاً من الذاتية.

كنا نتفق على هذا كله، ونحاول في شيء غير قليل من التوفيق تطبيقه - كما يقول المعلمون - على ما ينشأ شعراً ونا من الشعر وكتابنا من النشر. وأراك الآن تسألني عن الذوق، ماهو؟ فهل نسيت هذا كله؟ لا ولكنها «تورينو» قد جعلت بينك وبينه

ستاراً ، وأنا زعيم أن أزيل هذا الستار ولو الى حين .

تذكر يوم قرأنا قصيدة شوقي :

الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالدا الترك جدد خالد العرب ! ؟

كنا جماعة منا العمامة ومنا الطربوش ، منا المصري ومنا السوري ، منا المسلم ومنا غير المسلم . وكنا جميعاً مرتاحين الى انتصار الترك ، متشوقين الى ما يسجل هذا الانتصار ويشيد به . وتناول شاب منا الصحيفة فأنشد القصيدة في شيء من الحماسة غريب ، وفي شيء من الالتقان في الصوت وإخراج الحروف وتقطيع الوزن وقذف القافية كما تقذف الحجارة فرضينا وأعجبنا ، وتحمس بعضنا فصفق واقترقنا على أنها قصيدة رائعة . ثم التقينا في مجلس من هذه المجالس التي أخلو فيها اليك وحدنا فنتحدث في حرية ، وينتهي بنا الحديث في كثير من الأحيان الى ما يكره كثير من الناس . فأعدنا قراءة القصيدة وحينئذ لاحظت أنت ولاحظت أنا : أن إعجابنا الأول لم يكن الا ظاهرة اجتماعية ، وأن بين الذوق العام وذوقنا الخاص تناقضاً غير قليل هذه المرة . ذلك لأننا كنا أثناء هذه القراءة الثانية قد تخلصنا من فوز الترك ، وتخلصنا من الجماعة التي كانت

تحيط بنا، ولم نحكم إلا ذوقنا الشخصي . وذوقنا الشخصي معقد
 - كما تعلم - فيه أثر الأدب العربي القديم ، وفيه أثر الأدب الغربي
 الحديث ، وفيه أثر الثقافة مركبة مختلفة العناصر . فليس غريباً
 أن يكون حكمه في الشعر مخالفاً لحكم الجماعات المختلطة .
 وأذكر وتذكر أنت أيضاً أننا لهونا يوماً باخضاع هذه
 القصيدة لهذا الذوق المعقد ، فضحكنا وأغرقتنا في الضحك
 والسخرية من هذه الصور العتيقة البالية تتخذ لتصوير الحياة
 الجديدة الحاضرة ، وضحكنا بنوع خاص من هذا البيت :

قدفهم بالرياح الهوج مسرجة

يحملن أسد الشرى في البيض واليلب

وأضحكتنا هذه الرياح المسرجة وإن كان المراد بها الخيل ،
 وأضحكتنا أسد الشرى على هذه الخيل وإن كان المراد بها
 فرسان الأتراك ، ثم قصدنا إلى الانصاف وقلنا : شاعر يقدر
 القدماء ، فلا ينبغي أن ينظر إليه إلا بأعين القدماء ، ولا ينبغي أن
 يقاس إلا بمقاييسهم . وكان هذا النوع من الانصاف في نفسه
 قضاء على القصيدة فهو حكم بأنها لا تثبت أمام النقد الحديث
 ومقاييسه . ولجأنا إلى النقد القديم ، فأما أنت فلبست ثياب
 أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، زعيم النحويين في الكوفة

آخر القرن الثالث للهجرة . وأما أنا فلبست ثياب ابى العباس
محمد بن يزيد المبرد زعيمهم فى البصرة وفى العصر نفسه ، وكان
هذان الرجلان يختصمان دائماً . وكنا اذ وضعنا انفسنا
موضعهما نريد أن نختصم لعل اختلافنا ينفع أمير الشعراء .
فأما أنا فزعمت أن هذه القصيدة فارغة الامن الألفاظ ، ليس
وراءها شيء . وجعلت أضرب لك الأمثال بشعر القدماء
وبشعر الأخطل خاصة فى تصوير الهجوم والانتصار والهزيمة
العامّة والهزيمة الفردية ، وكنت أقف بك بنوع خاص عند
الرأية التى مطلعها :

خَفَّ القَطِينَ فراحوا منك اوبكروا

وأزعجتهم نوّى فى صرفها غيرُ

والتي مدح فيها الأخطل عبد الملك وبنى أمية وصور
جيش عبد الملك زاحفاً على العراق وانتصاره وانهزام القيسيين
أنصار ابن الزبير فى الجزيرة . وكنت أقف بك عند الرأية
الأخرى التى مطلعها :

ألا يا سلبى ياهند هند بنى بدر

وان كان حياناً عدى آخر الدهر

والتي قصد بها الشاعر إلى مثل ما قصد اليه فى الرأية

الأخرى، ولكنه أبدع في تصوير الهزيمة الفردية، فصور لنا فارساً يلهب فرسه والرماح تنوشه، وهو ينغمس معها في السراب، والسراب ينجاب عنه وعنهما، وهو يحثها ويفديها بأمه ان مضت في جريها الى العصر... كل ذلك فيما تذكر من لفظ متقن، سهل رصين متخير. وكنت أقول لك إن هذا الشعر يلائم ذوق العرب في عصره، ويصور المثل الأعلى لهم فهو جميل، وهو يعجبنا الآن ويرضينا فيمثل لنا حظاً من هذا المثل الأعلى. وكنت تسمع لى فترضى مرة وتنكر أخرى. ثم سكت حيناً وسألتنى: وأين أنت من قصيدة أبى تمام التى يمدح بها المعتصم وقد فتح عموريه؟ قلت ذلك فوجمت لك ثم رأينا معاً أن شوقى انما اتخذ قصيدة أبى تمام هذه نموذجاً حين أراد أن ينظم قصيدة فى انتصار الترك.

ومن غريب الأمر أن اتخذ القصيدة نموذجاً فى اللفظ والمعنى، وفى الوزن والقافية، فمطلع أبى تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

فى حده الحد بين الجد واللعب

فهى من البسيط وقافيتها الباء ورويها مكسور، وكذلك قصيدة شوقى، فأبو تمام إذن هو الذى قدم الى شوقى قوافيه،

وشياً غير قليل من ألفاظه ومعانيه ، وبخاصة هذا التشبيه الذى كان يلائم ذوق المسلمين وهم يجاهدون الروم بقيادة الخليفة المعتصم ، تشبيه يوم عمورية بيوم بدر لأن المعتصم خليفة الله وابن عم النبي وهو يجاهد للدين ، بينه وبين بدر قرنان ليس غير ، وانتصاره بمعجزة كانتصار النبي يوم بدر ، أشرف له وأجدى عليه . أخذ شوقي هذا التشبيه من أبي تمام فألصقه بمصطفى كمال ، ولم يكن مصطفى كمال خليفة ، بل كان خارجاً على الخليفة . ولم يكن يجاهد للدين بل كان يجاهد للوطن . ولم يكن يجاهد بالسيف والرمح والخيول ، وإنما كان هذا أقل أدوات الحرب خطراً . وأساء شوقي اختلاس هذا التشبيه فقد كنا نرى أن أبا تمام أوردده مورد الشك حين استعمل أداة الشرط ، وأوردده شوقي مورد اليقين ، وأن أبا تمام أوردده فى بيتين وأوردده شوقي فى أبيات . قال أبو تمام :

إن كان بين صروف الدهر من رحم

موصولة أو زمام غير منقضب

فبين أيامك اللاتي نصرت بها

وبين أيام بدر أقرب النسب

وقال شوقي :

يوم كبدت فخيّل الحق راقصة
على الصعيد وخيل الله في السحب
غر تظللها غراء وارقة
بدرية العود والديباج والعذب
نشوى من الظفر العالى مرحة
من سكرة النصر لا من سكرة النصب
تذكر الأرض ما لم تنس من زبد
كالمسك من جنبات السكب منسكب
حتى تعالى أذان الفتح فاتأدت

مشى المجلى اذا استولى على القصب
وكنيت تقول لى : إن البيت الأول من بيتى أى تمام يعدل
قصيدة شوقي كلها . وكنيت أرى أن من الظلم أن يقاس هذا
الشعر الذى لا يدل على شىء الى بيت كهذا البيت فيه الشك
واليقين معاً ، وفيه المبالغة والاقتصاد معاً ، وفيه اللفظ الرصين
يدل على المعنى الجيد .

وكنيت تقول لى : أليس من العجب أن يأخذ شوقي معنى قاله
أبو تمام فى بيت واحد ، فيذنيه فى أبيات دون أن يصل الى
شىء ؟ قال أبو تمام :

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وقال شوقي :

لما أتيت بيد من مطالعها

تلفت البيت في الأستار والحجب

ثم استمر شوقي يصف ابتهاج العالم الاسلامي في عشرة
آيات زلزلت فيها الأرض زلزالها فسعى بلد الى بلد واصطدمت
مدينة بمدينة ، وتخابط الموتى في دمشق وحلب والأحياء في
الهند ومصر ، كل ذلك ولم يظفر بقول أبي تمام :

فتح تفتح أبواب السماء له

وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وكنت تقول لي : إن في قصيدة أبي تمام من الشعر ما لاءم
الذوق القديم ويلائم الذوق الحديث ، ويعجب به الشرقي
والغربي معاً ، لأنه الشعر في نفسه ، فيه قبس من هذا الجمال
الخالد الذي هو فوق الزمان والمكان والجنسيات ، قال أبو تمام
يصف اضطرار عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها

لنار يوماً ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى

يقله وسطها صبح من الذهب

حتى كأن جلايب الدجى رغب

عن لونها أو كأن الشمس لم تغب!

ضوء من النار والظلمة عاكفة

وظلمة من دخان فى ضحى شحب

فالشمس طالعة فى ذا وقد أفلت

والشمس واجبة فى ذا ولم تحب

وكنت تقول : إن بيتاً واحداً من هذا الشعر يزن ديوان

شوقى كله وهو قوله :

حتى كأن جلايب الدجى رغب

عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ولو أنك التمت الشعر فى قصيدة شوقى هذه لما وجدت

منه شيئاً ، فان أبيت فدلنى عليه !

وكنت تقول : كان البديع فى عصر أبى تمام يعجب

جمهرة المتأدين ، فأخذ منه أبو تمام بحظ لا يخلو من إسراف ،

وهو لا يعجبنا ، فما اضطرار شوقى إليه لولا التقليد السخيف !

وأى جمال فى قوله :

ما كان ماء « سقاريا » سوى سقر

طغت فأغرقت الاغريق في اللهب

لأنه وضع اليونان موضع الاغريق لاجتناب هذا الجنس
الثاني ، ولاحتفظ لبيته بشيء من الجمال الشعري ، فالصورة
لا بأس بها ، ولكن جناسين خليقان أن يفسدا أجمل الصور
وأروعها .

ثم أخذنا ننتقل في القصيدتين من بيت إلى بيت حتى
انتهينا الى أن ذوقنا القديم نفسه على طرحه لا يستطيع أن يسيغ
قصيدة شوقي ، بعد أن أبي ذوقنا الحديث أن يسيغها ! وكانت
خلاصة رأيك ورأيي : أن هذه القصيدة إنما هي أشبه شيء بالتمرين
المدرسي يذهب به الأطفال مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التي
تلقى اليهم ، فيوفقون في الصورة ويخطئون الموضوع .

أتذكر هذا كله ؟ واذا كنت تذكره فأنت تذكر رأيك
ورأيي في الذوق الأدبي ، أما أنا فما زلت محتفظاً برأيي . وأما
أنت فقد نسيت رأيك حيث تعلم ، ولعلك تجد أنه إذا أقبل
صيف هذا العام !

شعراؤهم !

وما رأيك في أن ندع اليوم شعرانا الحديث وشعراءنا
المحدثين ، لنقف عند طائفة من شعراء الفرنجة ، نرى كيف
يشعرون ، وكيف يعلنون شعورهم إلى الناس ، وكيف يلائمون
بين أذواقهم الخاصة وبين أذواق من يتحدثون اليهم من القراء ،
وأنا أعلم أن ليس هذا بالشئ اليسير ؟ فلو أنى حدثتك عن
هؤلاء الشعراء دون أن أنقل اليك شيئاً من شعرهم لأضعت
وقتك ووقتي ، ولكان حديثنا عبثاً لا خير فيه . وإذن فلا بد
من أن أترجم لك طائفة من هذا الشعر الأجنبي وأعرضه عليك
نماذج أتخذها موضوعاً لأحاديث مقبلة .

ولكن أتظن أمر هذه الترجمة يسيراً ؟ أما أنا فأعترف
بأنه أشق وأعسر مما كنت أقدر ، فالذوق الغربي مخالف من
وجوه كثيرة لذوقنا الحديث على تغييره وتطوره . وفي اللغات
الأجنبية مرونة ويسر لم يتاحا بعد للغتنا العربية . ومن هنا
كانت في الشعر الأجنبي خاصة ، والأدب الأجنبي عامة صور
قد يعسر جداً نقلها إلى اللغة العربية ، حتى إذا نقلت لم نسغها ولم
تطمئن إليها نفوسنا وأذاننا . ومع ذلك فهي تعجبنا وترضيها

كل الرضا حين نراها في لغاتها الأجنبية الخاصة . ومصدر ذلك فيما نعتقد : أننا لم نتعود أن نرى في لغتنا العربية مثل هذه الصور . وما هي إلا أن نكثر الترجمة والنقل ونجد فيهما حتى نألف هذه الصورة ويتأثر بها ذوقنا، ونحاول أن نحتذيها ونحاكيها ، فلنبداً غير خائفين ولا مترددين .



ولن أترجم اليوم إلا مقطوعات قصاراً قصد بها أصحابها تصوير طائفة من عواطفهم الخاصة في ظروف خاصة ، حتى اذا أسغت هذا النوع من الشعر وألفت قراءته والاستماع له كان من اليسير أن تنتقل بذك إلى ترجمة القصائد الطوال توضع في الأغراض ذات الخطر .

وأنا أقف بك الآن عند هذه المقطوعة القصيرة من شعر بودلير Baudelaire التي سماها : (خلوة الى النفس) والتي تحدث فيها الى أمله . وأحب أن تقرأها في شيء من التفكير والروية ، وأن ترى معي كيف استطاع الشاعر أن يتحدث الى أمله في هذه الدعة والاذعان والازدراء ، وأن يصور أثناء هذا الحديث الطبيعة التي تحيط به ، ويمثل ما بين هذه الطبيعة وبين

نفسه في هذه اللحظة التي يصفها ، فهو إذن عند ما يخلو الى نفسه لا يقطع الصلة بينها وبين الطبيعة . بل كل ما يستطيع أن يصل اليه هو أن يحاول اعتزال الناس لحظة ، ولكنه يعتزل الناس ليتصل بالطبيعة اتصالاً قوياً ، قال بودلير :

خلوة الى النفس !

شيئاً من الهدوء والدعة أيها الألم !

لقد كنت تبتغي المساء ، فيها هو ذا يهبط ، فانظر اليه !
هذا جو مظلم يغمر المدينة ، يحمل الطمانينة الى قوم والهم الى آخرين !

بينما أوشاب الناس يحنون الندم من اللهو الدنيء ، يدفعهم اليه سوط اللذة ، هذا الجلاد الذي لارحمته له ، اعطى أيها الألم يدك وتعال هنا بعيداً منهم !

انظر الى السنين الخالية مظلة في أثواب بالية من طنف السماء !
وانظر الى الأسف المبتسم تنشق عنه أعماق الماء ! وإلى الشمس المحتضرة تنام تحت قوس من أقواس هذا الحبور ،
واسمع أيها الألم العزيز الليل الحلو يمشى وكأنه كفن طويل ينسحب في الشرق !

وانظر الى هذه المقطوعة الأخرى للشاعر نفسه ، وقد سماها «النافورة» وهي من مشهور شعره الذى تناوله الموسيقيون فأبدعوا فى توقيعه ، كما أبدع هو فى تصويره . ولا تحكم عليه بهذه الترجمة فظلمه ، ولكن احكم عليه ان شئت بنصه فى الفرنسية ، وبالصورة الموسيقية التى استطاع الموسيقيون أن يحكوه بها . وأحب أن تقف بنوع خاص عند هذا التشبيه الذى تدور عليه المقطوعة كلها ، فصاحبنا قد رأى النافورة ورأى الماء يصعد منها فى قوة كأنه باقة من الزهر حتى اذا انتهى به التصعيد الى أقصاه عاد فتساقط على الأرض قطرات عراضاً كل ذلك على تأثره بضوء القمر . رأى هذا فأعجبه وإذا هو يثير فى نفسه معنى آخر متصلاً بحبه وحزنه لهذا الحب ، وإذا هو يشبه نفس صاحبه حين يحفزها الهوى ، وتملكها العاطفة فتقسمو الى أسى أطوار الشوق ، ثم يأخذها القصور الانسانى فتعصف وتهبط واذا هى قد انتهت الى هذا النوع من اللذة الذى ينتهى اليه الحب عادة شبه هذه النفس بهذا الماء المندفع من النافورة ، وعسير علينا نحن أن نتصور النفس كما تصورها بودلير . ولكننا مع ذلك عند ما نقرأ هذا الشعر ، ولا سيما فى نصه الفرنسى لا نملك أنفسنا من الإعجاب والرضا ، ثم انظر الى

آخر هذه المقطوعة كيف تحدث الشاعر فيه الى الطبيعة في
طور من أطوارها ، وكيف اتخذها مرآة لحبه الحزين .

النافورة

في عينيك الجليلتين سقم أيتها العاشقة المسكينة !
دعيهما كذلك زمناً لا تفتحيهما دعيهما في هذه
الهيئة الفاترة كما فاجأتهما اللذة !
هذه النافورة في الفناء لها أزيز لا ينقطع في الليل ولا في
النهار ، يستبقي في هدوء هذا الذهول الذي غمرني به الحب
منذ الليلة !

هذه الباقة التي تتفتح في زهر لا يحصى ، والتي يزينها القمر
المبتهج بألوانه ، تساقط كأنها مطر من دموع ثقال !
كذلك نفسك التي يحرقها برق اللذة الملهب ، تصعد
سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة ، ثم ترد وقد
أحالتها الضنى موجة من الفتور الحزين تنحدر من طريق خفية
الى أعماق قلبي !

هذه الباقة من دموع ثقال !
إيه أيتها التي يخلع الليل عليها هذا الجمال ، أحجب الى بأن

اسمع - مائلا نحو ثدييك - هذه الشكاة المتصلة التي تنوح في
الحوض !

أيها القمر ، أيها الماء المصطفق ، أيتها الليلة المباركة ، أيها
الشجر يهتز في خفة ، إنما اكتئابكن النقي مرآة ما أجد من حب !
هذه الباقة من دموع ثقال !



ثم لنذع الآن بودلير ، ولننتقل الى شاعر آخر هو سولي
بريدوم Sully Prudhomme . ولنبدأ من شعره بهذه المقطوعة
المشهورة التي ترجمتها لك ، دون أن أغير شيئاً من وضعها الفرنسي ،
محملاً لغتنا العربية في ذلك بعض المشقة . وقد أراد الشاعر أن
يصور في هذه الأبيات إعجابه بالعيون الحسان ، وحزنه على
ما يملؤها من الظلمة حين يدرکہا الموت .

العيون

زرق أوسود ، كلهن محبوبات ، وكلهن حسان ! عيون
لا تحصى رأين الفجر ، قد انطوت عليهن أعماق القبور
والشمس ما تزال تشرق !

ليال أودع من النهار أبهجن عيوناً لا تحصى ، وهذه
النجوم ما تزال تلمع ، وقد ملأت الظلمة تلك العيون !

لهفى ! أتراها فقدت لحظها ! كلا كلا ، ليس الى هذا
سبيل ، إنما تحولت الى بعض الوجوه ، نحو سبيل ما يسمونه
الغيب !

وكما أن النجوم تفارقنا حين تنحدر ، ولكنها تظل في
السماء ، فللحدق غروبها ، ولكن ليس حقاً أنها تموت !
زرق أو سود كلهن محبوبات ، وكلهن حسان ناظرات من
وراء القبر الى فجر عريض ، تلك الأعين التي أغمضت ماتزال
ترى !



وهذه المقطوعة الأخرى التي يمثّل فيها الشاعر في لفظ
عذب وقوة لا حد لها ، طموحه إلى المثل الأعلى وعجزه عن
الوصول إليه وثقته بمستقبل الانسان :

المثل الأعلى

القمر مكتمل والسماء مشرقة تملؤها النجوم ، والأرض
شاحبة ، ونفس الكون تملأ الفضاء !
وأنا اتبع النجم الأعلى ذلك الذي لا يرى ، ولكن ضوءه
يعبر الأجواء ، حتى يصل الى حيث نحن فتبتهج به عيون جيل
آخر !

فاذا لمع يوماً هذا النجم الذى هو أزهى النجوم وأناها
فقل له : إني أحببته يا آخر أجيال الناس .

ثم هذه الأبيات التى يشبه فيها الشاعر صدور البكاء عما
يستمكن فى أنفسنا من الحزن والحنان ، اللذين تهيجهما بعض
العواطف ، بتساقط الندى الذى يتكون فى الهواء ثم تسقط
به رطوبة الجو !

السهل الندى

أنا ذاهل فى قطرات الندى التى وضعتها يد الليل الرطبة
على خمل الزهر تأتلف لآلىء فى خفة !
من أين جاءت هذه القطرات المضطربة ؟ ليست السماء
ممطرة ! والجو صحو ! ذلك أنها كانت كلها فى الهواء قبل أن
تتكون !
من أين جاءت دموعى ؟ كل شعلة فى أعماق السماء حلوة
هذا المساء ! ذلك أنى كنت أضمرهن فى نفسى قبل أن أحسهن
فى عيني !

إن فى نفوسنا لحناناً تضطرب فيه الآلام جميعاً ، ورب
مسة رفيقة هاجتها فأنبئت فيها البكاء !

وهذه المقطوعة الأخرى التى يمثّل فيها الشاعر أحب
أوقات الحب إليه، وأشدّها أثراً فى نفسه وأبقاها ذكرى فى قلبه.

ساعات الحب

ليست خير ساعات الحب تلك التى تقول فيها إني أحبك .
إنما هى ساعة الصمت المتصل الذى لا يكاد ينقطع ،
إنما هى فيما بين القلوب من توافق سريع خفيف ،
إنما هى فى القسوة المتكلفة والعفو الخفى !
إنما هى فى قشعريرة الذراع توضع عليها اليد المضطربة .
وفى الصحيفة يقلبها المحبان معاً ، على أنهما لا يقرأنها
ساعة فذة يقول فيها الفم المطبق بحياائه وحده شيئاً كثيراً ،
يتفتح فيها القلب على رفق كما ينشق السكم عن الوردة !
يتنسم فيها الحب أرج الشعر فكأنما فاز بأعظم الزلفى !
ساعة الحنان الحلو حين يكون الا جلال نفسه اعترافاً
بالحب !



وقد أطلت عليك ، ولا بد مع ذلك من العودة الى هذين
الشاعرين وشعراء آخرين بالنقل عنهم حيناً والتحدث عن
شعرهم حيناً آخر .

بودلير Baudelaire

الحرية والفن

عرضت عليك منذ أسبوعين صوراً شعرية لشاعرين من شعراء فرنسا في القرن الماضي . وقلت إنى قد أحدثك عن هذين الشاعرين في فصل آخر ، وأنا أريد أن أبر بهذا الوعد ، ولكن البر بهذا الوعد ليس بالأمر الهين ولا بالشىء اليسير . وأول صعوبة تعترض سبيل هذا البر أن الحديث عن هذين الشاعرين في فصل واحد شىء لا سبيل إليه فأمرهما أطول وأدق من أن يلم به في فصل من الفصول وهما مختلفان في طبيعتهما ومزاجهما بل في أغراضهما الشعرية . فلنكتف بأحدهما اليوم وليكن صاحبنا بودلير .

ولكن الحديث عن بودلير في نفسه عسير شاق . فأمره من الطول والدقة والتعقيد بحيث يضطرنا إلى أن نعرض عن أشياء كثيرة ولا نلم منه إلا بالقليل ، وفي هذا القليل نفسه مشقة وعسر . فقد كانت حياة هذا الشاعر شاقة عسيرة مثيرة للخصومات منذ أولها إلى أن انتهت ، وما تزال الخصومات قائمة حوله إلى الآن ، وأحسب أنها ستظل قائمة إلى مستقبل بعيد

نشأ هذا الشاعر في أسرة متوسطة ، كان أبوه معلماً في
الحدائق والمدارس الثانوية في باريس حين ولد سنة ١٨٢١ .
ومات عنه أبوه ولما يتجاوز السادسة من عمره وترك ثروة
ليست بذات خطر . وقد تزوجت أمه من ضابط في الجيش
ظل يرتقى حتى انتهى إلى أعلى المراتب العسكرية . ونشأ الطفل
في حجر هذا الضابط ، ولكنه نشأ نشأة لم تخل من القهر
والعنف والضيق ، فقد كان يكره هذا الرجل الذي خلف أباه
ويتبرم بماله عليه من سلطان . وكان كرهه لهذا الرجل يعرض
الصلة بينه وبين أمه لشيء من السوء والاضطراب ، فكان ذلك
ينغص عليه حياته ويؤذي نفسه الناشئة ويحجب إليه الوحدة ،
ويغض إليه الناس عامة وأسرته خاصة . وكان يكفي أن يتبين
ميول هذا الرجل ليعغضها وينصرف إلى نقائضها . وكان هذا
الرجل معتدل الميول ، مطامعه تشبه مطامع أوساط الناس ،
وهي إلى المحافظة والتشدد فيها أقرب منها إلى أي شيء آخر .
فكان هذا كافياً أن ينشأ صبينا مبغضاً للمحافظة ميالاً إلى
التطرف . ولم يكن صبينا تلميذاً نجيباً ولا طالباً بارعاً .
وانما كان من أوساط التلاميذ والطلاب ظفر بالشهادة الثانوية
في شيء من المشقة والجهد . ولم يكدهم درسهم حتى ظهر

الخلافاً عنيفاً بينه وبين أسرته . كانت أسرته تحب أن توجهه نحو الحياة العاملة المنتجة فأعلن هو إليها أن يحترف حرفة الأدب . وأنكر عليه ولية هذا الميل وأصر هو عليه ولكنه كان قاصراً فلم يتمكن مما أراد وأرسلته أسرته إلى الهند فأقام فيها عشرة أشهر ثم عاد وقد رأى البحر والشرق والشمس وأماً غريبة وحياة لم يكن له بها عهد ، وأطواراً اجتماعية لم يكن يقدرها .

وماهى إلا أن بلغ رشده واستطاع الاستمتاع بحريته حتى اعتزل أسرته واندفع في حياة تخالف كل المخالفة ما كان يطمع فيه ولية من المحافظة والاعتدال : عاش الشعراء والمصورين والمثاليين وكتاب القصص ، وأخذ يتكلف من الأزياء والأطوار ما جعله موضع نظر الناس جميعاً ، ينظرون إليه دهشين منكرين ، ويسمعون له فيزداد دهشهم وانكارهم لما كان يلقي من ضروب الكلام المخالفة لما للناس من أحكام وقيم وأخلاق وتصور للأشياء . وكان صاحبنا يصطنع الأفيون والحشيش مع جماعة من أصدقائه الفنيين ، فلا يزيد ذلك إلا شذوذاً في الأطوار . وقد أسرف في ثروته الضئيلة فأوشكت أن تنضب ، واضطرت أسرته إلى أن تحجر عليه

واضطرب هو إلى أن يشتغل بالصحافة الأدبية ليوسع على نفسه وعرض له قصص الكاتب الأمريكى المعروف ادجار پو (Edgard Poe) فكلف به وأخذ فى ترجمته إلى الفرنسية . واتصل بالشعراء الرومانتيك وتأثر بهم ، وكان فى كل هذا إذا شخصيتين متميزتين : أحدهما هذه التى يراها الناس والتى اختصرتها لك فى هذه الأسطر ، والأخرى شخصية خفية عاكفة على نفسها تفكر وتقدر وتألم وتشكو . ولكن فى سر وتكتم .

وفى سنة ١٨٥٥ أخذت هذه الشخصية الثانية تظهر على استحياء . وذلك حين قدم الشاعر مقطوعات من شعره الى « مجلة العالمين » فنشرتها مع شيء من التحفظ والريية والبراءة من التبعة الخلقية لهذا الشعر الغريب .

وفى سنة ١٨٥٧ ظهرت هذه الشخصية فجأة فدهشت لها فرنسا كلها . دهش لها الشعراء والفنيون ، ودهش لها أوساط الناس ، واضطربت لها الجماعة الفرنسية ثم أنكرتها وتولت النياية والقضاء هذا الانكار ، وحكم على الشاعر بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك ، وحكم على ديوانه الذى ظهرت به هذه الشخصية بأن تحذف منه مقطوعات اعتبرت مخالفة للأخلاق

أما الشعراء فقد أنكروا الشاعر ولكنهم أحبوه : أنكروه لأنه استحدث لهم شيئاً جديداً ، وأحبوه لأن هذا الشيء الجديد نفسه كان قيماً ممتعاً . واشتد الجدل منذ ذلك الوقت حول الشاعر ومذهبه وأغراضه الشعرية . واضطرب الشاعر نفسه في الدفاع عن موقفه . فصانع الجمهور حيناً وسكت عن الدفاع حيناً آخر ، واحتج عند بعض الخاصة لمذهبه الشعرى في صراحة وإخلاص . واختلفت على الشاعر صروف الحياة فلقى ضروباً من اللين والشدة . وانتهى به الأمر الى بلجيكا فأقام فيها حيناً ثم أعيد مريض الأعصاب الى باريس فمات فيها سنة ١٨٦٧ .



هذه خلاصة شديدة الإيجاز لحياة بودلير ، وهى على اسرافها فى الإيجاز تعطيك منه صورة أقل ما توصف به أنها غريبة . وقد أثارت حياة بودلير وآثاره الأدبية مسألة أكثر فيها القول وسيكثر فيها القول لأنها من هذه المسائل التى لا يتفق عليها ، أو بعبارة أدق من هذه المسائل التى سيظل الخلاف فيها قائماً ابداً بين الفرد والجماعة ، ولا سيما حين يكون هذا الفرد على حظ من التفوق والنبوغ ، هذه المسألة هى مسألة

الحرية والفن . ولكنك لن تقدر هذه المسألة حتى تعلم أن
الديوان الذى أثارها ووقف من أجله الشاعر أمام القضاء
كان يحمل هذا العنوان الغريب : « أزهار الشر » Les Fleurs
du mal وهو يتألف من مقطوعات شعرية قصار ، عرض
فيها الشاعر لضروب من الشر المادى والمعنوى ففصلها وحللها ،
واستخرج منه فى قوة وفن بديع صوراً شعرية رائعة ، فالمسألة
هى : هل يملك الفن هذه الحرية التى تتيح له أن لا يحفل إلا
بنفسه وبالجمال من حيث هو جمال ، سواء أوافق فى ذلك ما
ألف الناس من أخلاق ونظام ودين ، أم لم يوافقه ؟

أما بودلير فكان فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين
الخاصة من الأدباء يجيب : نعم ! وأما خصومه وهى الجماعة
كلها ومعها نظمها الدينية والخلقية والسياسية فكانوا يجيبون :
لا ! وسجل القضاء هذا الجواب . ولكن الأدباء الفرنسيين وعلى
رأسهم زعيمهم يومئذ وهو فكتور هو جو أنكروا حكم القضاء
واتهموه بالظلم . ولا ننس أن هذا الحكم صدر فى ظل
الامبراطورية الثانية ، أى فى جو لم يكن جو حرية وإنما كان
جو عسف وجور . على أن من الحق أن نلاحظ أن بودلير
حاول فى اثر هذا الحكم أن يصانع الجمهور والجماعة والقضاء

فكان يقول: إن هذه الصور الشعرية لا تعبر عن آرائه وأغراضه في الحياة، وإنه لا يخالف الناس فيما يرون وما يعتقدون فيما يتصل بحياته العملية والعقلية والشعورية، وإنما هذا الديوان صور فنية قصد إلى إظهارها، كصانع يجرب نوعاً من الصناعات لا أكثر ولا أقل. كان يقول هذا مصانعة وتقية، ولكنك رأيت أن هذه الصور كانت في حقيقة الأمر مثلاً لحياته الشخصية الداخلية. فنحن نستطيع الآن أن نقطع بأن الشاعر لم يعتمد إلى هذه الموضوعات ولا إلى هذه الصور ليعالجها معالجة موضوعية صرفة كما يقولون، وإنما هي قطع من نفسه تمثل شخصيته اليائسة البائسة المتألمة المحبة، الراغبة في الموت المشفقة منه في وقت واحد. وفي الحق أن هذا الديوان يدور كله حول أشياء ثلاثة هي: الحب والألم والموت. والشاعر لا يكاد يحس شيئاً من هذه الأشياء دون أن يحس معه الشيتين الآخرين. فهو إذا ذكر الحب ذكر معه الألم والموت، وهو إذا ذكر الموت ذكر معه الألم والحب، وهو في كل ذلك حر جري مجازف يتخير أبشع الصور وأقبحها وأشدّها تأثيراً في النفس من هذه النواحي البشعة القبيحة. وهو مادي التصور، لحسه المادي أثر قوى في شعره ولا سيما حس اللبس والشم

والبصر، فهو يعرض عليك هذه الصور البشعة التي يحسبها الشم
أو اللس أو البصر في الأجسام الهالكة المتحللة و « أزهار
الشر » هذه التي يشتمل عليها ديوانه أزهار فيها جمال قوى رائع،
ولكنه في الوقت نفسه بشع مخيف تضطرب له النفس وتشمئز
في كثير من الأحيان . فهناك مسألتان يثيرهما شعر بودلير :
إحداهما قدمتها لك وهي : هل للفن أن يستمتع بحريته الكاملة
بالقياس إلى الأخلاق والسياسة والدين وما إليها من النظم
الاجتماعية ! وجواب هذه المسألة طبعى : فأما أصحاب الفن
فيقولون نعم ، لأنهم يطالبون بحريتهم في أقصى حدودها . كما
يطالب العلماء بحريتهم العلمية في أقصى حدودها . وأما
الحكومات والبرلمانات وحماة النظم الاجتماعية والسياسية
فيجيبون : لا . وجوابهم هذا يختلف باختلاف حظوظهم من
المحافظة والاعتدال والتطرف . وما أرى إلا أن هذا الخلاف
سيظل أبداً .

ولست أحب أن أعرض رأيي فيه الآن ، ولا أن أقول
فيه نعم أو لا ، فلست بحمد الله فنياً ، ولست بحمد الله من حماة
النظم الاجتماعية على اختلافها ، وإنما أنا أحد الذين يشهدون ،
وحسبى أن أطالب للعلماء بحريتهم العلمية .

أما المسألة الثانية التي يثيرها شعر بودلير ، فأجل من هذه
المسألة خطراً ، وأخلق منها بعناية الكتاب والأدباء عندنا .
وكم أحب أن أعرف رأى هيكل والعقاد . وهى : هل يستطيع
الفن أن يتخذ الشر موضوعاً ويستخلص منه صوراً فنية جميلة
وبعبارة أدق وأوضح : هل فى الشر جمال يصلح موضوعاً
للفن ؟

وأنا أدع للفنيين من الشعراء وغيرهم الجواب على هذه
المسألة .

التي لا يمكن أن لا يفهم

بأنك يا حفرة الدكنر تنظر بعين النهم

ما تحركه المصنوعات ، وهو فتنه عن

فئة الضان بينا عهدناك ادبنا بأرعا
ناقدًا لبنا ضنادًا

الافقل كحملك دأش غر قهره من

سواهنة الحفائت وقول لك بلف وصرعة .

النثر العربي في نصف قرن

الرأى الشائع بين المحافظين من أهل الأدب العربى وأصحاب العلم به : أن النثر أيسر من الشعر وأن اصطناعه شىء سهل لا يكلف صاحبه عناء ولا مشقة ، وهم من هذه الناحية يقدمون الشعر على النثر ، ولهم فى ذلك مباحث طوال وكلام كثير ، تستطيع أن تلهو به إذا نظرت فى كتاب العمدة لابن رشيق وما يشبهه من الكتب . وما أظن أن رأى الأدباء تغير فى هذا الموضوع . فهم ما يزالون يعتقدون أن الشعر أعسر من النثر وأبعد منه متناولا ، ثم ما يزالون يعتقدون أن النثر أقدم من الشعر وجوداً ، وهم معذورون فظواهر الأشياء كلها توهم ذلك وتحمل على الجزم به .

فالنثر مطلق لا قيد فيه ، والشعر مقيد بالوزن والقافية ، والنثر مشبه فى إطلاقه لكلام الناس فى حياتهم اليومية وحوارهم المألوف . وإذن فالناس يتكلمون نثراً ، وهم يتكلمون قبل أن يشعروا ، وهم لا يجدون مشقة فى الكلام ، وهم يجدون

في نظم الشعر مشقة وعناء، وإذن فالنثر أقدم من الشعر وأيسر وأدنى منالا . ومن هنا يقسم مؤرخو الآداب العربية كلام العرب إلى منظوم ومنثور ومسجوع ، وهم يرون أن النثر كان في العصور القديمة أكثر من الشعر ، ولكن ما حفظ من قديم الشعر أكثر جداً مما حفظ من قديم النثر ، وتعليل هذه الظاهرة لا عسر فيه فالشعر أشد عسراً من النثر في الانشاء ولكن الشعر أدنى إلى الحافظة وأساس لها قياداً من النثر، أليست القيود التي تأتيه من العروض والقافية تقربه من الحافظة وتجعل في استظهاره لذة وراحة لا نجدهما في استظهار النثر ؟ فإذا كان ما نرويه من نثر العرب قبل الاسلام قليلا فليس ذلك لأنهم لم ينثروا بل هو لأنهم لم يكونوا يكتبون ، ولأن حافظتهم لم تكن تطاوعهم إلى حفظ النثر واستظهاره فضاع نثر العرب الجاهليين إلا أقله، وبقى شعر العرب الجاهليين إلا أقله. كذلك كان يقول القدماء ، وكذلك ما يزال يقول المحدثون، ولكن شيئاً من التفكير والنظر في آداب الأمم المختلفة يضطرنا إلى أن نعدل عن هذا الرأي القديم ، فمن العجيب أن تتفق الأمم كلها على أن تحفظ من شعرها القديم أكثر مما تحفظ من نثرها في عصورها الأولى ، ومن العجيب أيضاً

أن تتفق الأمم كلها في ضعف الذاكرة عن النثر وقوتها على
الشعر. ومن العجيب بعد هذا وذاك ألا تضعف ذاكرة هذه
الأمم إلا عن النثر القديم، فأما النثر الذي يظهر بعد أن
تبلغ الأمة من الرقي العقلي والمدنى طوراً ما فإن ذاكرتها
تقوى عليه وتنهض باستظهاره كما تقوى على الشعر وتستظهره.
الحق أن الأمم إذا لم ترو شيئاً من نثرها القديم فليس لذلك
سبب إلا أنها لم يكن لها نثر في أطوار حياتها الأدبية الأولى،
وإذا روت كثيراً من شعرها القديم فلأنها كان لها شعر في
أطوار حياتها الأولى هذه، أى أن الشعر أسبق إلى الوجود
من النثر، وأنه أيسر منه وأدنى منالاً. وأنت إذا نظرت في
تاريخ الأمم القديمة والحديثة، وإذا نظرت في حياة الأمم التي
لم تكمد تتحضر بعد فسترى أنها كلها تسبق إلى الشعر ولا تهتدى
إلى النثر ولا تظفر به إلا بعد زمن طويل وجد خير قليل ورقى
في الحضارة وتقدم في الحياة العقلية لا بأس بهما، تجد ذلك
عند اليونان وتجده عند الرومان، وتجده عند العرب وتجده
عند الأمم الأوربية الحديثة.

وحيثما وجهت في القبائل التي لم تستقر بعد فسترى كلاماً
منظوماً، له أوزانه وقوافيه دون أن تجد لها هذا النثر الذي

يظن رجال الآداب أنه أقرب من الشعر منالاً . ذلك أن النثر
ليس أقرب من الشعر منالاً ، في حقيقة الأمر ، ولعل حظه
من العسر ليس أقل من حظ الشعر إن لم يكن أكثر
منه . فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال ، والخيال أسبق
إلى النمو في حياة الأفراد والجماعات من العقل ، خيال
الصبي والشباب أقوى من عقله وخيال الجماعات غير المتحضرة
أقوى من عقلها ، فليس عجيباً أن يتكلم الخيال قبل أن يتكلم
العقل وليس عجيباً أن يوجد الشعر قبل أن يوجد النثر ، وليس
عجيباً أن يكون الشعر أيسر تعاطياً وأدنى تناولاً من النثر .
فالخيال إن تقيد بالوزن والقافية حين يتكلم فهو لا يتقيد
بشيء آخر ، هو حرٌّ طلق يمضي حيث يشاء ويصور الأشياء
كما يشاء ، لا كما تشاء الأشياء أو كما تشاء الطبيعة ، أما العقل
فقد يطلق نفسه من قيود الوزن والقافية ولكن ما أثقل
القيود والأغلال التي تأخذه وتعوقه عن الحركة ولا تأذن له
بالتقدم إلا في بطء وأناة ، هو لا يطير ولا يحسن أن يطير ،
وهو لا يعدو ولا يستطيع أن يعدو ، فإذا حاول الطيران أو
العدو فليس هو العقل الخالص وإنما هو العقل قد غلب عليه
الخيال ، هو لا يطير ولا يعدو ولكنه لا يسعى في هدوء .

بعضها
بعضها

وهو لا يصور الأشياء كما يشاء ولكنه يقبل صورها كما هي ، هو
مقيد والخيال مطلق ، وهو بطيء والخيال سريع ، فليس عجيباً أن
يتأخر نموه عن نمو الخيال ، وليس عجيباً أن يكون إنتاجه أضعف
وأقل من إنتاج الخيال ، وليس عجيباً آخر الأمر أن يكون النثر
الذي هو لغة العقل أحدث وجوداً من الشعر الذي هو لغة الخيال
ولكن مالى ولهذا كله ؟ وأين أنا من الموضوع الذي أريد
أن أكتب فيه ، وهو النثر العربي في هذا العصر الذي نحن فيه ؟
وما هذه المقدمات الطويلة ؟ ! أليس القارئ يحس أنى أطيل
عليه وأثقل في غير نفع ولا جدوى ؟ بلى ، ولو كنت من
أصحاب الخيال لما أطلت ولا أثقلت ولا احتجت الى مقدمات
فالخيال كما قلنا خفيف حر يأتي حيث شاء وكيف شاء ولكنني
أريد أن أكتب نثراً ، أى أريد أن أحمل عقلي على أن يتحدث
إلى عقل القارئ ، وقد قلنا إن العقل رزين بطيء لا يطير ولا
يعدو ، ولكنه يسعى في أناة فليسمع القارئ معنى في أناة أيضاً ،
ولينتقل معي من كل هذه المقدمات الى حيث أريد أن أثقل
به ، لئلا حظ أن هناك صلة قوية جداً بين الحياة العقلية وحظ
النثر من القوة والضعف ، من الرقي والانحطاط ، من البرد
والحر والفتور . متى بلغ النثر اليوناني أقصى ما استطاع أن يبلغ

X

من الرقى؟ في عصر سقراط وأفلاطون. ومتى بلغ النثر العربي أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقى؟ في عصر ابن المقفع والجاحظ وأشباههما. أى أن رقى النثر كان عند اليونان والعرب رهيناً برقى الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول، وهو كذلك عند الرومان، وهو كذلك في أمم أوروبا الحديثة، وهو كذلك في مصر. إن الذين يريدون أن يؤرخوا الآداب العربية في هذا العصر الحديث خليقون ألا يقطعوا الصلة بين الأدب والعلم، وألا يظنوا أن الحياة الأدبية تستطيع أن تستقل استقلالاً تاماً عن الحياة العلمية، بل هم خليقون أن يعتقدوا أن ليست هناك حياة أدبية وحياة علمية، وإنما هناك حياة عقلية تظهر مرة في شكل أدبي هو النثر الفني وتظهر مرة أخرى في شكل علمي، هو هذا النثر الذي نجمده في كتب العلم الخالص أقول إن الذين يدرسون تاريخ الأدب في هذا العصر الحديث خليقون أن يقدرُوا تأثير العلم والفلسفة في هذا الأدب وفي النثر بنوع خاص، فليس يمكن أن يكون من أثر المصادفة وحدها أن تطرد الصلة بين الرقى العلمي والفلسفي ورقى الآداب عامة والنثر منها بنوع خاص، وفي الحق أنك حين تقرأ هذا النثر الذي كان يكتب في الشرق

العربي في أول القرن الماضي تشعر بالفساد الفني الأدبي وحده، ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ما تقرأ من المعنى القيم وبإعدام هذه العقول التي يترجم عنها هذا النثر، وستشعر بعد هذا بما ينتج عن إعدام هذه العقول وفقرها من الفساد الفني الذي يتصف به النثر العربي في كل العصور التي ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية. لا يخدعك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعي والبياني؛ من سجع وتكلف في الاستعارة والمجاز في التشبيه والكناية والتورية وما إليها، فليس هذا كله إلا تكلف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر الغنى المثرى. إنما مثل هؤلاء الكتاب الذين يتكفون ألوان البديع والبيان في غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها الجمال الفطري فهي تتكلف الزينة، وأعوزها حر الحلي فهي تخدع الناس ببهرجه وزائفه. ومن هنا تستطيع أن تلاحظ أن النتيجة القيمة التي جاء بها القرن الماضي في النثر العربي إنما هي إطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية، وهو لم يطلقه من هذه القيود عبثاً وإنما أطلقه منها لأنه منحه هذا الروح القوي الذي مكنه من أن يستقل بنفسه ويستهوى العقول والألباب قليلاً قليلاً، وهذا الروح القيم الذي بث الحياة في النثر العربي وألقى

عنه هذه اللقائف البالية التي كانت تثقله وتعوقه عن الحركة
 وإنما هو المعنى ، وهذا المعنى إنما جاء من الحياة العقلية التي أنشطها
 العلم والفلسفة في القرن الماضي . وليس أدل على صدق ما نقول
 من أنك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبراءته
 من هذه الأغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجاءة وإنما كانا رهينين
 بوجود الصلة ونموها بين الشرق والغرب أى بين العقل المعدم
 والعقل الغنى . مؤلم جداً هذا الشعور الذي تجده حين تقرأ الجبرتي
 وأمثاله من الذين كانوا يكتبون في أول هذا العصر الحديث .
 ولكن توسط القرن الماضي وقرأ ما كان يكتب في مصر
 والشام فستجد شيئاً من اللذة يشوبه شيء من الألم كثير ، لأنك
 تقرأ كلاماً يدل على شيء ، ويريد بنوع خاص أن يدل على شيء ،
 ولكنه لا يكاد يبلغ ما يريد لأن حظه من المعنى قليل من جهة
 ولأنه لم يستطع بعد أن يخلص من تلك القيود والأغلال
 من جهة أخرى . ثم صِلَ إلى الثلث الأخير من القرن الماضي
 وقرأ ما كان يكتب في مصر والشام أيضاً فسيعظم حظك من
 اللذة وستشعر بشيء من الألم ، ولكنه ليس هذا الألم الذي تجده
 حين تشهد البؤس والاعدام وإنما هو نوع آخر من الألم تجده
 حين تشهد التكلف والتصنع ، وحين نحس أن هذه المعاني ،

لو اطلقت من قيودها وأرسلت على سجيتها لأحدثت في نفسك من الهجة واللذة ما لا تستطيع أن تحدثه وهي مشقة بما يحيط بها من لفائف البديع والبيان .

كل هذا يدل على أن النثر العربي قد كان ثقيلاً بغيضاً - أول القرن الماضي - لأنه كان قليل الحظ من الحياة العقلية لا أثر فيه لشخصية الكاتب ولا لتفكيره ، أو قل لأنه كان فقراً كله ثم أثرى العقل الشرقي شيئاً فشيئاً فدبت الحياة في النثر بمقدار هذه الثروة العقلية ، وأخذ هذا النثر كلما أحسن حياته وقوته يجتهد في أن يخلص نفسه من قيود الفقر وأغلال البؤس ، حتى انتهى إلى حيث هو الآن من حرية وانطلاق . فالنثر اذن مدين في هذا العصر بحريته وانطلاقه ورقبه الفني كما كان مديناً في غير هذا العصر بهذه الأشياء كلها للعلم والفلسفة ، وما أحدثا من تنشيط العقل ورده إلى اليقظة بعد النوم وإلى الحركة بعد الجود .

ومن الحق على الكتاب المجيدين أن يعرفوا ما للعلماء والفلاسفة عليهم من فضل وأن يقدروا ما للذين نقلوا إليهم العلم والفلسفة عندهم من يد ، فلو لا المترجمون في العصر العباسي ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ ، ولو لا المترجمون في هذا العصر الحديث ما عادت للنثر العربي حياته القوية النشيطة التي

نريد أن نتحدث عنها بعض الحديث .

أخشى أن أكون مسرفاً بعض الشيء . فإن حياة النثر العربي في هذا العصر لم تأت كلها من قبل العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، وإنما جاءت من قبلهما ومن قبل شيء آخر . هو الأدب العربي القديم في عصوره الراقية . فقد كان الكتاب وأهل العلم في أوائل القرن الماضي يجهلون أو يكادون يجهلون قديم العرب وما كان لهم من شعر جيد ونثر رائع ، وكان الذين يلبون منهم بهذا الأدب القديم لا يكادون يفهمون ما يلبون به على وجهه ، وكانوا لا يحاولون أن يتأثروه أو يحتذوه . أما الآن فقد تغير هذا كله وعرف الأدب العربي القديم ، وعادت الحياة إلى الشعر العربي والنثر العربي ، فنحن نقرأهما ونحفظهما وننقدهما وتتأثرهما ولهذا كله حظ عظيم من التأثير في جودة ما نكتب من نثر وما ننظم من شعر . ولكن ما الذي رد الحياة إلى الأدب العربي القديم ؟ وما الذي ذكر كتاب الشرق وشعراءه بهذا الأدب وما الذي حملهم على قراءته وروايته ونقده واحتذائه ؟ إنما هو هذا الروح العلمي الذي جاءنا من الغرب ونقله إلينا المترجمون . هذا الروح العلمي هو الذي أنشط العقول ، وحملها على أن تفكر في القديم والحديث .

وعلى أن تغذو نفسها بهما معاً. وإذن فأنا لم أسرف ولم أتجاوز الحق حين رأيت أننا مدينون بحياة النثر لهؤلاء المترجمين الذين أوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ. ولقد أحب أن أعرف حظ البلاد الشرقية في إيجاد هذه الصلة الخصبة القيمة بين الشرق والغرب فلا أجد في ذلك مشقة ولا عسراً، فالبلاد التي ردت إلى الشرق حياته العقلية والأدبية في هذا العصر. هي بعينها البلاد التي أحيت الشرق في العصور الأولى حياة قوية مطردة لا عارضة ولا متكلفة. نعم لم يستمد الشرق العربي حياته قديماً من شمال أفريقيا ولا من جزيرة العرب بل لم يستمدّها من العراق إلا بمقدار، وإنما استمد حياته الصالحة الخصبة في نظام واطراد من مصر والشام. من هذين القطرين أزهرت الحضارة الشرقية الخاصة، ومن هذين القطرين انبعشت الحضارة إلى أطراف الشرق، وفي هذين القطرين أثمرت الحضارات الأخرى التي نشأت من غيرهما وسيطرت على الشرق حيناً طويلاً أو قصيراً كحضارة اليونان والرومان والعرب، وإلى هذين القطرين لجأت الحضارات الشرقية وغير الشرقية حين ضاقت بها البلاد الأخرى فوجدت فيهما ملجأً أميناً ومأوى حصيناً. نعم وفي هذين القطرين نشأت

النهضة الشرقية في هذا العصر الأخير : نشأت في مصر
ونشأت في الشام أوائل القرن الماضي ، واستبق القطران فيها
إستباقاً عظيماً حتى أصبح من العسير أن نحدد الحظ الذي
ظفر به كل منهما في هذه النهضة . فبينما كان أمراء مصر من
الأسرة العلوية يجدون في إنهاض مصر وتقوية الصلة بينها
وبين الغرب ، وإرسال الوفود العلمية إلى أوروبا واستقدام
العلماء الأوربيين إلى مصر ، وإقامة المعاهد العلمية المختلفة . ونقل
الكتب في ألوان العلوم والفنون كان المسيحيون من أهل
الشام يتصلون بأوروبا اتصالاً قوياً لأسباب مختلفة ؛ منها
السياسة ومنها الدين ومنها العلم . وكانت تحدث في بلاد الشام
حركة مشبهة جداً لهذه الحركة التي كان يستحدثها الأمراء في
مصر ، وكانت تنتج عن هاتين الحركتين في مصر والشام
نتيجة واحدة : هي نشاط العقل الشرقي واستئناف الحركة
والحياة . ولكن من الحق أن نلاحظ أن مظهر النهضة كان
في مصر علمياً عملياً أو أقرب إلى العلم والعمل منه إلى أي
شيء آخر ، بينما كان مظهر الحركة في الشام أقرب إلى الأدب
واللغة ، وأدنى إليهما منه إلى أي شيء آخر . فأنت تستطيع أن
تجد في مصر في أثناء القرن الماضي العلماء الذين تفوقوا في

الطب والرياضة والطبيعة ، ولكنك لا تكاد تظفر فيها
بأديب يعدل هؤلاء الأدباء الذين كثروا في الشام . وأنت
تستطيع أن تجد في الشام أدباء تفوقوا في الأدب واللغة
واستحدثوا فيهما الجديد النافع ، ولكنك لا تجد في الشام
مثل ما تجد في مصر من العلماء . ومهما يكن من شيء فقد
أرادت ظروف الحياة التي أحاطت بالقطرين أن يلجأ النشاط
السوري في الأدب واللغة إلى مصر منذ أواخر القرن الماضي ،
وأن تكون القاهرة مستقر الحركة العقلية القوية في الشرق
كله ، فانتقل أدباء السوريين وعلماءهم إلى مصر ووجد نشاطهم
فيها ما لم يكن يجده في الشام من القوة والتشجيع فأتى ثمرته
الباقية الخالدة وأصبح النثر العربي الآن أصدق مزاج التأم
فيه الروحان السوري والمصري التاماً لا سبيل إلى تفريقه .
ولست أقول هذا الكلام عبثاً ، ولا أطلقه من غير دليل ،
فليس من شك في أن الصحافة صاحبة الحظ الموفور في نشر
الأدب والعلم وإنشاء النثر الحديث ، وأنا حين أذكر
الصحافة لا أريد بها اليومية دون الأسبوعية أو دون الشهرية
إنما أريد الصحافة كلها ، والصحافة سورية مهما يكن من شيء ،
ولعل أحداً لا يستطيع أن يناقش في أن الصحافة المصرية

الخالصة حديثة العهد بالوجود وأنها على ما بلغت من قوة الأيد وشدة الأسر في هذه الأيام لم تستطع ان تسبق الصحافة السورية ولا أن تتفوق عليها.

وحسبنا أن نلاحظ أن الصحافة المصرية إن كانت قد بلغت من القوة في هذه الأيام حظاً موفوراً، فهي بعد لم تستطع أن تتجاوز السياسة، وهي إن أثرت في الأدب فمن طريق السياسة ومن السعي الى السياسة، فأما الصحافة الأدبية والعلمية الخالصة التي تتناولها لتقرأ فيها فصلاً من فصول الأدب، أو مبحثاً من مباحث العلم ليس غير، فما زالت إلى الآن سورية وهي ترحب بضيوفها من المصريين وغير المصريين، وتجد في تضييفها إياهم حياة وقوة، ولكنها على كل حال سورية.

والآن وقد ألممنا بأصول هذه النهضة النثرية العربية فهل نستطيع أن نشخصها تشخيصاً صحيحاً وأن نصل الى المميزات التي تفرق بين هذا النثر الذي نكتبه الآن والنثر الذي كان يكتب منذ خمسين سنة؟ أعتقد أن ذلك ليس عسيراً فقد كان النثر منذ خمسين سنة كما قلت لك آنفاً متوسطاً بين حالين فيه معنى قيم يحدث في نفسك ما تطمح اليه من لذة علمية وفنية ولكنه

لم يخلص من تلك الأغلال والقيود التي كان يرسف فيها النثر
 القديم ، فهو مقيد بالسجع متكلف للاستعارة وألوان البديع
 والبيان ، ولكنه لم يكن يتكلف هذه الألوان بحكم الفقر
 والاعدام ، وإنما كان يتكلفها بحكم العادة ولم يكن بدُّ في ذلك
 الوقت الذي أحسَّ العقل الشرقي فيه حرّيته وشخصيته من
 أن تشب الحرب ضروباً بين المذهبين المختصمين دائماً في النثر :
مذهب أصحاب القديم ومذهب أصحاب الجديد . وقد شبت
بالفعل هذه الحرب وكان السوريون هم الذين شبوها لأنهم
كما رأيت أصحاب الصحافة ، ولأنهم كما رأيت أقرب إلى
النشاط في الأدب منهم إلى النشاط في غيره ، وأنت تعلم أن
الصحفي مضطر بحكم صناعته وما تستتبعه من العجلة والتحدث
إلى الجمهور إلى أن يتحلل من هذه القيود البديعية ، ويتخلص
من هذه الأغلال الفنية . وكذلك فعل الصحفيون من
السوريين وكذلك فعل الصحفيون المصريون أيضاً ، واستطاع
الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان أن
 يكتبوا فصولاً لا تخلو من آثار القديم ؛ فيها السجع وفيها
 تكلف البديع والبيان ، ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب
 في أوائل القرن الماضي وفي منتصفه أيضاً ، فيها حرية لفظية

ومعنوية ظاهرة، وفيها اجتهاد في اختيار الحر من اللفظ واجتناب المتبدل، وفيها طموح إلى الجديد لم يكن يألفه الكتاب المصريون من قبل، وكثر انتشار المباحث العلمية الحديثة في مصر والشام بفضل المجلات والصحف والكتب، واشتدت حركة إحياء الأدب العربي في القطرين وقرأ الناس العلم والأدب الغربيين فنشطت عقولهم وقرأوا الأدب العربي القديم فاستقامت ألسنتهم وأقلامهم. ولم يكبد ينتهي القرن الماضي حتى كان الشعر قد خلاص من أغلال البديع خلوصاً تاماً، وحتى كان الجهاد بين القديم والجديد في النثر قد تطور تطوراً غريباً فأصبح أنصار القديم لا يستمسكون بركاة الجبرتي ولا يحرصون على بديع ابن حجة وإنما يستمسكون بقديم بغداد وغيرها من أمصار البلاد العربية في العصر العباسي، ويستمسكون بصحة اللفظ من الوجهة اللغوية وبراءته من العامية والابتدال. وأصبح أنصار الجديد لا ينفرون من البديع والبيان، فقد استراحوا من البديع والبيان. وإنما ينفرون من الاغراق في هذا الأدب العربي القديم ويطمحون إلى تقليد الأدب الغربي الحديث واصطناع الألفاظ الأوربية الأعجمية. اشتد هذا الجهاد بين أنصار القديم والجديد في العقد الأول من

هذا القرن، وكان السوريون بنوع خاص من أشد الناس نصراً
للجديد، وكان شيوخ مصر هؤلاء الذين توسطوا بين الأزهر
والمدارس المدنية لأنهم تخرجوا من دار العلوم من أشد أنصار
القديم وكان العلم يزداد انتشاراً والشباب يزداد إمعاناً في
الاتصال بأوروبا والتغذى بما فيها من علم وأدب. ثم كانت
حركة وطنية في مصر قوية عنيت بها الصحف واندفعت فيها
اندفاعاً شديداً وكان الشباب قوة هذه الحركة، ومن الذي يستطيع
أن يأخذ الصحف المندفعة في حركاتها السياسية بملاحظة القديم
واتقاء الألفاظ؟ ومن الذي يستطيع أن يأخذ الشباب التأثير بأن
يتقيد بالقاموس أو لسان العرب؟ ولا مراً تجاوزت هذه الحركة
السياسية مصر وكانت الثورة في قسطنطينية وأعلن الدستور
العثماني وردت الحرية إلى الأقطار العربية العثمانية فكان لهذا
كله أثر قوى في الأدب العربي، وفي النثر منه بنوع خاص،
وكان هذا كله صدمة عنيفة لأنصار القديم من الكتاب
والشعراء. ذلك لأن هذه الحركات السياسية نقلت الكتابة
من بيئتها القديمة إلى بيئات جديدة ما كانت لتكتب لولا هذه
الحركات، فقد كانت الكتابة - كما كان العلم - حظاً مقصوراً
على بيئة خاصة من الناس ثم أصبحت الكتابة كما أصبح العلم

حظاً شائعاً في الناس جميعاً. ومن ذا الذي يستطيع أن يأخذ
الناس جميعاً بالتحرج فيما يكتبون والتقييد بمعاجم اللغة
وأساليب القدماء ؟ وكانت الحرب العظمى فاشتد الاتصال
والمخالطة بين الشرق والغرب وانتهيا الى حد لم يعرف من قبل
ثم انتهت هذه الحرب وتبع عنها ما نتج من هذه الثورة السياسية
العامّة في الشرق العربي كله ، وأثر هذا في حياة الناس على
اختلاف فروعها فلم يكن بد من أن يؤثر في الأدب أيضاً ، وفي
النثر بنوع خاص . الحق أن الحرب ونتائجها وقفت نمو
الحركة الأدبية في الشرق العربي ، وأن هذه الثورة السياسية
شغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية حيناً وقصرت جهودهم
على السياسة ولكن هذه السياسة نفسها قد تركت في النثر
العربي آثاراً أن تمحى قبل عصر طويل ، جعلته حاداً عنيفاً
واستحدثت فيه فنوناً مختلفة وأساليب متباينة من الطعن
والخصومة لم يعرفها النثر العربي من قبل . ثم لم تلبث السياسة
نفسها أن استحدثت حياة أدبية جديدة في النثر ظهرت منذ
حين وآتت ثمراً طيباً ، ولكنها لم تصل بعد الى غايتها . ومن
الحق أن نقول إن مصر قد اختصت بهذه الحركة . ولكل
شيء خير وشره وقد كان للخصومة الحزبية في مصر شروطها

وآثامها ، ولكن لها في الوقت نفسه حسناتها ومنافعها ، وإنما
نعني منها بالحسنات والمنافع الأدبية .

وأول ما نلاحظ من هذه الحسنات أن الجهاد اشتد بين
الأحزاب فاضطرها الى أن تتنافس في اكتساب الجمهور
وكانت الصحف أجل الأدوات لهذا التنافس خطراً ، وكان
الأدب من أهم الأسباب التي اتخذتها الصحف وسيلة الى
التنافس . أخذت الصحف تنشر الفصول الأدبية تقلد في ذلك
صحف أوروبا ، ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم الى قراءة
ما تكتب في السياسة ، وما هي إلا أن أصبحت الكتابة في
العلم والأدب نظاماً تحرص عليه كل صحيفة تقدر لنفسها كرامة
صحفية ، وتريد أن يحفل بها الجمهور . وأصبح الجمهور نفسه
لا يقدر الصحف إلا اذا قدمت له مع الفصول السياسية
فصولاً في العلم والفلسفة والأدب والفن . والصحف تتجاوز
مصر وتنبت في الأقطار العربية كلها ، فما أسرع ما تتأثر هذه
الأقطار بهذه الفصول الأدبية . فالأدب وحده هو الذي يجمع
بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حرّاً بريئاً منتجاً بعد أن فرقت
بينها السياسة .

ولست أذكر هذه الفنون النثرية الهزلية التي استحدثتها

السياسة في الصحف الأسبوعية ، فلهذه الفنون قيمتها ولكنها ليست من النثر الذي نحن بازائه وهو النثر الأدبي الفصيح .

هذا النثر الأدبي الفصيح ان امتاز الآن بشيء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين أنصار القديم والجديد قد انتهت أو كادت تنتهي إلى قدر لن يعدوه المختصمون . ذلك أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لا ترضى بدونهما : الأول أن يقدم إليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقي الأسلوب برىء من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثاني أن يكون هذا النثر على كل ما قدمنا ملاءماً لذوقها الجديد وميوهاً لها الجديدة ، قima في معناه كما هو قيم لفظه ، حرٌّ في معناه كما هو حر في لفظه أيضاً ، ومعنى هذا أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون العربية الآن تحرص في حياتها كلها على أمرين : تحرص على قديمها لأنها لا تريد أن تمحو شخصيتها وتحرص على الجديد لأنها لا تريد أن تكون أقل من الغرب علماً ولا أدباً ولا حضارة . وهذا النثر الذي قدمت وصفه هو وحده الملائم لهذا الذوق الجديد وهذه الآمال الجديدة . ومع ذلك فللقديم أنصار وللجديد أنصار ، ولكن أولئك وهؤلاء قلة ضئيلة في حقيقة الأمر ، لا يكاد

الشعر

الشوقية الجديدة

لغيري أن يمدح شوقي بلا حساب . أما أنا فلا أريد أن
أمدح ولا أريد أن أذم . وإنما أريد أن أنقد وأن أوتر القصد
في هذا النقد ، وأظن أن شوقي يؤثر النقد المنصف على الحمد
المسرف . وأظن أني أجل شوقي وأكبره والنقد أكثر من
اجلالى إياه بالتقريظ والثناء ، فقد شبع شوقي ثناءً وتقريظاً ،
وأحسبه لم يشبع نقداً بعد . وليس شوقي فيما أعلم منه شرها
إلى حسن الحديث وطيب القالة . وهو لم ينشئ شعره لذلك
وإنما هو شاعر يحب الشعر للشعر وينشئ الشعر لأنه يجد في
نفسه عواطف يحب أن يضعها ، وإحساساً يحب أن يذيعه .
هو شاعر لأنه يشعر وليس هو بالشاعر لأنه يريد أن يتكلم
لا أكثر ولا أقل

أنا إذن واثق بأنني لن أغضب شوقي إذا نقدته ، وربما
أغضبته إذا غلوت في الثناء عليه ، على أني لست في حاجة إلى
هذه المقدمة الطويلة . فقد لا يسهل على ولا ييسر لي نقد

هذه القصيدة الجميلة التي نشرتها علينا « الأهرام » صباح اليوم .
 نعم قد لا يسهل نقد هذه القصيدة ، وقد يضطر الناقد الى
 أن يتلصق فيها العيب ، ويبحث فيها عن مواضع الضعف ، وقد
 لا يجد شيئاً بعد طول التلصق والبحث فيقف من شوق
 لا موقف الناقد بل موقف المداعب . وهل تظن أن مداعبة
 شوقي ضئيلة الخطر أو قليلة القيمة ؟ لا أقول كما قالت
 « الأهرام » إن قصيدة شوقي هذه هي درة الشعر والنظم :
 وإنما أقول إنها قصيدة من قصائد شوقي فيها الكثير الجيد
 وليست تخلو من الردىء ولشوقي بحمد الله قصائد أمتن لفظاً
 وأرصن أسلوباً وأحسن في النفس موقعاً ، وأرفع معنى من
 هذه القصيدة .

٥ لا أستطيع أن أتخذ هذه القصيدة مقياساً لشاعرية شوقي
 وحسن غوصه وفوزه بالمعنى الجيد وحسن أدائه في اللفظ
 الرشيق . لا أستطيع ذلك وقد قرأت في الشباب شعر شوقي
 في الشباب فوجدت في هذه القراءة لذة لم أجدها في قراءة
 شاعر عصرى آخر . ليست هذه القصيدة آية من آيات
 شوقي ، وإنما هي قصيدة من قصائده الجيدة ، ولعلك اذا أردت
 أن تتلصق بمصدر ما في هذه القصيدة من جودة لم تتجاوز شيئاً

واحداً، وهو أن شوقي لم يتكلف في هذه القصيدة لفظاً ولا معنى،
وانما شعر وأحس وجرى قلبه بما أحس وما شعر. وليس هذا
بالشيء القليل ولعل هذا هو كل شيء.

اقرأ هذه القصيدة من أولها الى آخرها تشعر بما يشعر
به شوقي وتحس ما يحسه شوقي. وبم شعر شوقي؟ وماذا أحس
شوقي حين تناول القلم فكتب هذه القصيدة؟ شعر بشيئين
يشعر بهما كل مصري، ولكن شعوراً غامضاً لا يتبينه في
نفسه، ولا يستطيع أن يبينه للناس. أحدهما أن لتاريخ مصر
القديم مجد وعظمة. والثاني أن تاريخ مصر الحديث فقير الى
هذا المجد والى هذه العظمة. بهذا يشعر كل مصري وبهذا
شعر شوقي. ولكن كل مصري لا يستطيع أن يبين هذا كما
بينه شوقي، ولا أن يذهب فيه مذاهب القول التي ذهبها شوقي.
فانظر اليه كيف ابتداء قصيدته بمناجاة الشمس، فأخذ
يسألها ويستوحيها ويحسن سؤاها واستيحاءها. وأخذت هذه
الشمس تجيبه فتحسن الجواب وتلهمه فتجيد الالهام:

قفي يا أخت (يوشع) خبرينا

احاديث القرون الغابرينا

وقد وقفت أخت (يوشع) تخبره أحاديث القرون

الأولين في أعذب لفظ وأسلسه . وأجمل أسلوب وأرقه
دون أن تتعسف به أو تثقل عليه ، دون أن تضل به في هذه
القرون القديمة الكثيرة العميقة ، التي لا يحصى لها عدولا
يسبر لها غور . وقفت أخت يوشع فحدثته أو قل إنها ألهمته
فرد عليها حديثها . أو قل أنها انابتة عنها فتحدثت الى الناس
بلسانها ، فأحسن الحديث وأجاد الترجمة .

زعموا أن المأمون كان ينشد قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدو في ثياب صديق

وكان يقول لو أن الدنيا تكلمت فوصفت نفسها لما
بلغت ما بلغ هذا الشاعر . أفئظن أن الشمس لو تكلمت
فوصفت ما بينها وبين الحياة من صلة ، وألقت على الناس موعظتها
الحسنة في غير اسراف ولا غلو ، في غير تكلف ولا تعسف
كانت تقول أحسن من هذا ؟

مشيت على الشباب شواظ نار

ودرت على المشيب رحي طحونا

تعينين الموالد والمنايا

وتبنين الحياة وتهدينا

فيالك هرة أكلت بنيتها

وما ولدوا وتنتظر الجنينا

أليس هذا حقاً؟ أليس هذا بريئاً من كل سقم لفظي أو

معنوي؟ أليس هذا واضحاً يفهمه كل عقل؟ أليس هذا

عذباً يسـيغـه كل ذوق؟ أليس هذا يسيراً يسيراً؟ أليس

هذا عسيراً؟

ولكن الشاعر اراد أن ينتقل من هذه الحكمة البالغة،

والعبرة العامة الى موضوعه الذي عمد اليه، ويخيل الى أنه لم

يوفق الى حسن الانتقال

أم المالكين بنى (أمون) ^{عكوا}

ليهنك أنهم نزعوا (أمونا)

لست أدري لم أجد شيئاً من الصعوبة في إساعة هذا

البيت؟ ويخيل إلى أنه لو أسيع لكان عسير الهضم . ولعل

مصدر هذا اسم (أمون) الأعجمي الذي وقع موقعاً فيه

شيء من الحرج في هذه الصفحة العربية النقية ولعل مصدر

هذا بنوع خاص هذا الفعل الغريب الذي تكلفه الشاعر

تكلفاً، أو اضطر اليه اضطراراً وهو (نزعوا) يستعمله

الشاعر بمعنى (أشبهوا) ويمر به القارئ فلا يفهمه ويضطر

الى أن يعطف على هذا الشرح الذى اضطر الشاعر نفسه الى أن يضعه . ولعله كان يستطيع أن يجد فى سعة اللغة وثروتها مخلصاً من هذا الحرج . وفرجاً من هذا الضيق فلا يقف ليشرح ولا يضطر القارئ الى أن يقف فيقرأ الشرح . وهبه انشد قصيدته إنشاداً ولم ينشرها فى « الاهرام » أترأه كان ينشد هذا البيت ثم يقطع الانشاد ويعمد الى هذا اللفظ الغريب فيفسره لسامعيه ؟ وما لنا نحزن ونحن نستطيع أن نسهل وما لنا نعسر ونحن قادرون على التيسير .

ولعل الشاعر يعذرني أيضاً إذا لم يعجبني هذا البيت .

ولدت له (المآمين) الدواهى

ولم تلدى له قط (الأمين)

فلفظ (المآمين) فيه نبو . ولفظ (الدواهى) يبعث الاشمنزاز فى النفس . ولفظ (قط) يخلو من كل جمال شعري . والبيت كله غامض برغم هذه الحاشية التى أضافها الشاعر . والبيت كله مخالف للحق فليس من الحق فى شيء أن ملوك مصر جميعاً كانوا كالمأمون ، وليس من الحق أنه لم يكن بينهم من أشبه الأمين . على أنى أبحث عن هذا الشبه فلا أجده وأكاد أخشى أن يكون الشاعر قد ظلم الأمين كما ظلمه

المنطق

القصاص والرواة.

ثم مضى الشاعر في لفظ سهل، ومعنى ليس بالغريب ولا بالمبتذل، الى ان قال فأجاد اللفظ والمعنى:

تعالى الله كان السحر فيهم

أليسو للحجارة منطقينا؟

واستأنف مضيه ليس بالجيد ولا بالردى الى أن انتهى الى الخلود، فأحسن وصفه وأجاد التعبير عنه ولا سيما

حيث يقول: **يقول المتنبي:**
وتركك في فم الدنيا دنياً طائفاً نداول سمع المرء أخذ
وأخذك في فم الدنيا ثناء

وتركك في مسامعها طنيناً

وان كنت أجد لفظ (الطينين) قلقاً في موضعه ضعيفاً
كل الضعف غير ملائم لصدر البيت، انظر الى هذا الصدر
تجده فخماً ضخماً واسعاً رائعاً (وأخذك في فم الدنيا ثناء)
ثم انظر الى عجز هذا البيت تجده خاملاً ضئيلاً نحيفاً، وهل
تستطيع ان تضع (الطينين) بازاء هذا الثناء الذي ينطق به فم
الدنيا؟ وأين يقع الطنين هذا الصوت النحيل من هذا الثناء
ثناء الدنيا الذي لا حده؟

قناجيههم بعرش كان صنواً
لعرشك في شيبته سينا
فهو لا يخلو من مسحة شعرية.

ولكنى اعتذر الى الشاعر اذا استثقلت هذا البيت الذى
نظمت فيه أسماء الفراعنة نظم الخرز
وتاج من فرائده (ابن ستي) و ~~(مينا)~~

ومن خرزاته (خوفو) (ومينا)
وليس اجمل من اعتذاره عن قدماء المصريين ودفعه
عنهم تهمة الظلم ومن استشهاد بظلم (البستيل) وذكره
بنوع خاص ظلم القسس فى بناء البيع التى هى مأوى العدل
والرحمة ، ففى ذلك على جماله الشعرى بر يملأ النفس حنانا .
وان كنت أكره وصف عيسى بشافى العمى . وأظن ان قد
كان للشاعر منصرف عن هذا اللفظ الثقيل المبتذل .

فأما قوله (اخا اللوردات) فليس من شوقى فى شيء .
وليس من شوقى فى شيء وضعه هذا الاسم الأعجمى
(كرنارفون) موضع القافية وجميل وصفه للورد وثنائه
عليه وعظته إياه . ولكن أجمل من هذا كله اعتذاره الى
اللورد من غضب الغاضبين واشفاق المشفقين . فى هذا

الاعتذار تلتطف باللورد، وحنان على مصر يحسن شوقي
وحده تأديتهما :

رأيت تنكرا وسمعت عتبا فعذراً للغضاب المحنقينا
ابوتنا وأعظمهم تراث نحاذر أن يؤول لآخرينا
ونأبى أن يحل عليه ضيم ويذهب نهبة لناهيننا
سكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا
هذه الأبيات تعدل آلاف المرات ما كتب الكتاب
الى اللورد كارنارفون من لوم وعتب ومن شكر واعتذار .
ثم عطف الشاعر على الانجليز فرماهم بسهم أصاب منهم
المقتل ، وأحسن الدفاع عن المصريين ، وذلك قوله فى لطف
وخفة روح :

أمن سرق الخليفة وهو حي يعف عن الملوك مكفيننا
وان كانت كلمة (مكفين) لا تعجبني ، وقد أحسن الشاعر
مناجاة خليليه ومناجاة فرعون ووعظ فأبلغ العظة . ولكن
انتقاله من وادى الملوك الى لوزان لا يخلو من غرابة ، وربما
كانت هذه الغرابة نفسها مصدر شيء من الجمال كثير . وان
كنت أشك فى أن وفود لوزان شغلت بفرعون كما يخیل
الى الشاعر . ولكن الحكومة المصرية خليفة أن تقرأ وخليفة

أن تتعظ ؛ وخليقة أن تعمل .

اتعلم انهم صلفوا وتاهوا وصدوا الباب عنا مو صدينا
ولو كنا نجر هناك سيفا وجدنا عندهم عظفا ولينا
سيقضى (كرزن) بالامر عنا وحاجات (الكنانة) ما قضينا
فهل ترى أبلغ من هذا البيت في وصف الألم واللوعة
لقضاء سينالنا دون أن يكون لنا في أمره شيء ؟

ولقد أعجز العجز كله إن أردت أن أصف لك جمال هذه
القطعة الصافية المتألئة من قصيدة شوقي . هذه القطعة التي
يتحدث فيها الشاعر الى فرعون فيسأله ويستنطقه بالحكمة
العالية والموعظة الحسنة ويضع أمامه هذه الألغاز التي عجز
العقل والوجدان عن حلها : ألغاز الحياة والموت . ألغاز البعث
والنشور . ألغاز الصلات الاجتماعية بين الناس .

ثم ينتقل الشاعر أحسن انتقال ، يثب ويخيل اليك أنه
يخطو . يثب من عصر الفراعنة الى العصر الذي نعيش فيه .
فتراه شاعراً مصرياً يعيش في هذه السنة يحس ما نحس ،
ويشفق مما نشفق منه . يحب الدستور ويكلف به ، ويتمنى على
صاحب الجلالة في ألد لفظ وأعذب وفي أمتن أسلوب
وأصفاه وفي أشد العبارات تمثيلاً لأصدق العواطف . يتمنى

على صاحب الجلالة اصدار الدستور :

زمان الفرد (يا فرعون) ولى ودالت دولة المتجبرين
 وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا
 (فؤاد) أجل بالدستور ملكا وأشرف منك بالاسلام ديننا
 بنى (الدار) التى لا عز إلا على جنباتها للمالكينا
 ولا استقلال إلا فى ذراها لمتبوع ولا للتابعينا
 ترى الأحزاب ما لم يدخلوها على جد الحوادث لا عيننا
 إذا سارت به أيد شمالا أتت أيد فسرن به يميننا
 فعجل يا (ابن اسماعيل) عجل وهات النور واهد الحائرنا
 هو المصباح فأت به وأخرج من الكهف السواد الغافلينا
 ذلك ما احسه شوقى أمام تاريخ مصر القديم ، وهذا ما قاله
 عن الدستور أما ما قاله حافظ فقد تعرض له فى مقال آخر .

النظم

قصيدة حافظ الأخيرة

كل شعر نظم ، وليس كل نظم شعرا . وقد يشعر الناظم
وينظم الشاعر . بل الشاعر ناظم دائما . وليس الناظم شاعرا
في كل وقت .

ولست أشك ولا يشك أحد في أن حافظا قد شعر كثيرا
فأجاد الشعر وأحسنه . ولست أشك ولعل حافظا لا يشك
أيضا في أنه كان ناظما في الأسبوع الماضي حين أنشد بين يدي
صاحب الجلالة هذه القصيدة التي لم أكن أريد أن اعرض
لها لولا أن شوقي تكلم وتناول في قصيدته التي نقدتها أمس
موضوعا تناوله حافظ ، وهو الدستور :

نعم لم أكن أريد أن اعرض لقصيدة حافظ لأنها لم
تبعث في نفسي ميلا إلى أن اصفها بخير . ولعلها بعثت في
نفسي ميلا إلى أن انقدها وإلى أن أكون شديدا قاسيا في
هذا النقد .

وقد استطعت أن أوثر اللين على الشدة واعدل عن

القسوة إلى الرفق لأن بيتي وبين حافظ صلوات مودة دعني
أو اكرهني على أن اميل مع الهوى فأكرم حقاً كان يجب
أن لا يكرم .

وأنا أعتذر من هذا الصمت إلى حافظ أولاً ، وإلى القراء
ثانياً ، وإلى الأدب بعد حافظ والقراء .

أعتذر إلى حافظ من هذا الصمت فأنا أعلم أن النقد صنيعة
يسديها الناقد إلى الكتاب والشعراء . لأن هؤلاء الكتاب
والشعراء يستفيدون من النقد أكثر مما يخسرون . يعرفون
رأى الناس فيما يكتبون ويقولون ، وليست هذه المعرفة قليلة
الفائدة . يعرفون رأى الناس ويعرفون رأى الاخصائيين .
فيقفون على مواضع القوة والضعف في فصولهم وقصائدهم
فينفعهم هذا ويزيدهم قوة ، إلى قوة ، ويعصمهم من السقوط
والاسفاف . ثم في النقد اقرار للحق في نصابه ودفاع عن
الفن وتبصرة لما في الآثار الفنية من جمال أو عيب .

ولست أريد أن أدافع عن النقد ولا أن أثبت أنه حق
وانه نافع ، فالناس لا ينكرون ذلك ولا يشكون فيه .

ولست أريد أن ازعم أن حافظا ينكر على الناس أن
ينقدوه ، فليس في ذلك شك وكثيراً ما دعا حافظ أصحابه

وخصومه الى نقده ودلالته على مواضع ضعف ومواطن
نقص في قصائده قبل أن تنشر ، وبعد أن تنشر على الجمهور .
إذا فقد كان من الحق على لحافظ أن أنقده ولكن سكت
فقصرت في ذات حافظ وأنا مصلح اليوم هذا التقصير .

وقد كان من الحق على للقراء أن انقد حافظاً ، حتى
لا يخطئ كثير منهم بين جيد هذا الشاعر وهو كثير . وبين
رديئه وهو قليل . ولكني سكت وأنا مصلح اليوم
هذا السكوت .

وقد كان من الحق على للأدب أن انقد حافظاً حتى
لا يضاف الى الشعر ما ليس منه ، ولا يحسب على الفن أثر
ليس من آثاره في شيء . وللادب على أهله حق المراقبة
والنصح وليس يعذر المقصر في هذا الحق لأن الأدب يحيا
من انتاج الشعراء والكتاب كما يحيا من اصلاح النقاد لآثار
الكتاب والشعراء . فكما أن سكوت الكتاب والشعراء عن
الكتابة والشعر إلمامة للأدب أيضاً . وقد أعرضت عن نقد
هذه القصيدة ، وأنا مصلح الآن هذا الاعراض .

ولو أنك أردت أن تبين دخيلة نفسي لقلت لك بعد أن
ترددت اسبوعاً إن هذه القصيدة لا ينبغي أن تحسب على

حافظ ولا أن تضاف اليه . لأن حافظاً قد قال من الشعر
ونظم من القصائد ما ملك القلوب وخبب العقول واستأثر
بالألباب ما ليس الى نسيانه من سبيل . ويخيل الى أن اضافة
هذه القصيدة الى هذا الشاعر المتقن إساءة الى اتقانه ، وأن
وضع هذه القصيدة بين قصائده الجياد ازراء لهذه القصائد .
وأحسب أن حافظاً يحسن الاحسان كله إذا لم يضع هذه
القصيدة فيما سينشر من أجزاء ديوانه ، فليس لها موضع في
هذا الديوان .

بحثت عن الشعر في هذه القصيدة فلم أجد شيئاً ، وأنا
أزعم أن ليس بين النقاد من يستطيع أن يجد ما عجزت انا
عن الوصول اليه ، بل أزعم أكثر من هذا ، بل أزعم أن
حافظاً عاجز نفسه عن أن يجد شيئاً من الشعر في هذه
القصيدة ، وما أشك في أنه فيما بينه وبين ضميره مقتنع بهذا
الرأى مطمئن اليه .

لقد قرأت القصيدة وقرأتها . ورددت أياتها ، رددتها
وسألت فيها كل بيت ، بل كل شطر ، بل كل كلمة عن شيء
من جمال الشعر أو قليل من روعة الفن فلم أوفق الى شيء .
ولست آسفاً لأن حافظاً لم يجد في هذه القصيدة ، فقد

يرتفع الشاعر وقد يهوى وقد يعلو الفنى وقد يسقط . ولئن لم يوفق حافظ فى هذه القصيدة الى الاحسان فقد وفق اليه فى قصائد أخرى كثيرة ، وقد يوفق اليه فى قصائد أخرى كثيرة . وإنما آسف لأن حافظاً سكت عصرًا طويلاً أطول مما ينبغى أن يسكت الشاعر ، ولما قال لم يحسن القول . وما مصدر هذا ؟ وما أصله ؟ وعلى من تقع التبعة ؟ أحق أن العصر الذى نعيش فيه ليس عصر شعر ولا فن ؟ وان انصرف الناس عن الشعر والفن الى هذه الحياة ، والى هذه الحياة السريعة العملية التى تنهك القوى وتسبب النفوس قد ثبت من همم الشعراء والكتاب وصر فهم عن الشعر الى النظم ، وعن النثر الرائع الجميل الى هذه الكتابة المألوفة التى تقرأها فى كل يوم . قد يكون هذا حقاً ، وقد لا يكون . ولكن هناك حقاً لا شك فيه وهو أن الشعر الجيد فى هذا العصر قليل لا يكاد يوجد ولا يعثر به . وهذه القلة نفسها هى التى بعثتنا الى ان نعجب أمس بقصيدة شوقي ، مع أنها كما قلنا لا تفوق غيرها من قصائده .

الشعراء اذاً مكرهون على أن يسكتوا الآن فى حياتنا الاجتماعية شيئاً يضطرهم الى السكوت ، وقد يكره الشعراء

على أن يتكلموا فيتكلمون . لكن أى قيمة لشعر مصدره
الا كراه !

فالشعر الجيد يمتاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما فى نفس
الشاعر من عاطفة . مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلاً فطرياً
بريئاً من التكلف والمحاولة ، فإذا خلت نفس الشاعر من
عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر
بما يمثليها فليس هناك شعر ، وإنما هناك نظم لا غناء فيه .
ولست أدري أخلت نفس حافظ من العاطفة القوية أم
عجزت هذه العاطفة عن أن تجرى لسان حافظ بالشعر الجيد
ولكننى أعلم أن ليس فى هذه القصيدة من هذا الشعر شيء .

أول ما يؤذيك حين تقرأ هذه القصيدة خلل أبياتها جميعاً
من كل معنى رائع أو تصور بديع . فانك تنتقل من البيت
الى البيت فلا تجد إلا ألفاظاً مرصوفة وكلها منظومة يتلو
بعضها بعضاً ، وتدل على معانيها اللغوية لا أكثر ولا أقل فإذا
عمد الشاعر إلى التشبيه أو المبالغة أو أى حيلة من هذه الحيل
اللفظية التى يخلص الشعراء بها من المازق لم يجد إلا ألفاظاً
مألوفة ومعانى كثيرة ما ردها الشعراء ، وطرقاً من التعبير
قد سئمها الناس .

فانظر اليه حين أراد أن يقول إن صاحب الجلالة قد
رفع شأن الأزهر الشريف ، حين زاره كيف لم يستطع أن يقول
إلا شيئاً عادياً مبتذلاً يردده الناس جميعاً ، ويسمعه الناس
جميعاً ، فلا يجدون فيه غرابة ولا لذة ، فقال :

قضيت به الصلاة فكاد يزهي

بزائره على ركن الحطيم

فهل تجد في هذا البيت معنى طريفاً أو وصفاً رائعاً ؟ وهل
تجد في هذه المبالغة شيئاً من الجمال ؟ وانظر الى مبالغة أخرى
كيف أساء الشاعر أداءها ، فقال يريد أن يصف قوة النهضة
المصرية ، وأن يستنبط هذه القوة من شدة الخمول القديم :

أفقنا بعد نوم فوق نوم

على نوم كأصحاب الرقيم

فهل تجد جمالا أو شعراً في كثرة هذا النوم ؟ اليس
يذكرك هذا البيت بيتاً مثله قديماً وهو قوله :

فما للنوى جذ النوى قطع النوى

كذاك النوى قطاعة لوصالى

سمع الأصمعى هذا البيت فقال ، لو سلط الله على كل

هذا النوى شاة فأكلته !

فماذا عسى أن نقول في نوم حافظ ! وهل تجد لأصحاب
الرقيم هنا موضعاً يلائم قصيدة حافظ . اليس الناس جميعاً
يذكرون الكهف واصحاب الكهف ونوم اصحاب الكهف ؟
وانظر الى مبالغة ثلاثة أساء فيها حافظ الاساءة كلها حين اراد
ان يذكر اغتياب مصر اذ صدر الدستور :
فيا مصر اسجدي لله شكراً

وتيهي واقعدى طرباً وقومى
(إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها
وقال الانسان ما لها) اجاب حافظ : صدر الدستور ! وإلا
فهل ترى مصر تتيه وتقعّد وتقوم طرباً دون ان يكون
هناك زلزال ؟ . ثم ما قوله (اسجدي لله شكراً) وماذا ترك
للعمامة ؟ ومثل هذه المبالغات التي تخلو من كل روعة . ومثل
هذه الألفاظ التي ابتدلت على السنة العمامة كثير في
القصيدة ، وفي الحق أن ابتدال الألفاظ من اشد عيوب هذه
المنظومة فانظر الى قوله :

فقد تم البناء وعن قريب

تزف لك البشائر من (نسيم)

أليس من كلام الأسواق ؟ أليس غريباً أن يكون هذا

الكلام من آثار حافظ الذي استعمل اشد الفاظ اللغة غرابة
واكثرها وحشية في كتاب البؤساء . الذي استعمل (مِسْلاخ
الشَّرَّة) وما يشبهه (مِساخ الشرة) من غريب الألفاظ
وهل عجز حافظ عن ان يتخير متين الكلام ورصينه في
غير وحشية ولا ابتدال . وانظر الى هذا البيت الذي ربما
خيل الى الشاعر انه خفيف الروح :
ياأذن لي المليك البرُّ أي

اهنيء مصر بالأمر الكريم
أترى فيه لفظاً من الفاظ الشعر او معنى من معاني الشعر
ومن اشد عيوب هذه القصيدة ان قوافيها غير مستقرة
في مواضعها . فقد تجد هذه القافية قلقة مضطربة وتشعر بأنها
لم تأت إلا لأن الشاعر قد احتاج اليها ، لم يدعها المعنى وإنما
دعاها التكلف . انظر الى هذا البيت :

رأى فيك (المعز) زمان أعلى
قواعده على ظهر الأديم
ما تقول في (ظهر الأديم) وقد اراد الشاعر ان يقول
الأرض بل لم يرد ان يقول شيئاً الا في (المعز) رفع قواعد
الأزهر . ولعل قواعد المساجد والعمارات لا ترفع على ظهر

الهواء وانظر الى هذا البيت :

فشرفها بركبك وافتتحها

وأسعددها بدستور تميم

فانظر الى (تميم) هذه ، أليست نائية في موضعها ؟ أليست

تذكرك قول العامة (دستور تمام) ثم ما (شرفها بركبك)

هذه ؟ وما (افتتحها) ؟

وانظر الى قوله :

فدار البرلمان أعز دار

تشاد لطالب المجد الصميم

أليس (المجد الصميم) لفظاً دعت اليه القافية ؟ وهل

تجد للصميم هنا فضلاً على الطريف أو التليد أو الأثيل ؟ .

وانظر الى قوله :

بها يتجمل العرش المفدى

وتحيا مصر في عيش رخيم

أتري إلى (العيش الرخيم) أليست تجد فيه أثر التكلف ؟

ثم أليس في (الرخيم) شيء من الأنوثة قد لا يليق بهذا المقام ؟

ثم ما قيمة البيت في نفسه اذا قرأت بعده قول شوقي :

بنى الدار التي لا عز إلا على جنباتها للمالكينا

وقد ذكرت شوقي ، وكنت أود ألا أذكره الآن !
 فإن الموازنة بين ما قال في الدستور ، وبين ما قال حافظ في
 الدستور أيضاً مرّة ، مؤلمة النتيجة . تقرأ أبيات شوقي فلا
 تشك في أنه يصف ما يشعر به وما تشعر به أنت أيضاً .
 وتقرأ أبيات شوقي فتجد فيها المعاني الغالية القيمة ، قد أدت في
 اللفظ العذب الرقيق . ليس فيها للبحث أثر ولا للتكلف
 مظهر . فإذا قرأت أبيات حافظ لم تجد شيئاً . وإنما آذتك
 ألفاظ متكلفة وقواف آنزلت في غير منازلها ، وأكرهت على
 أن تستقر حيث لا تحب . *لهذا عني نصيب الدستور*
 لأمر ما أبت شياطين الشعر أن تسعد حافظاً فأخلفنا في
 هذه المرة ، ولكننا لا نياس من لقاء حافظ ، ومن لقاءه في
 وقت قريب !

شعراؤنا ومترجم أرسططاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد أوفر كتاب هذا العصر ومؤلفيه حظاً من السعادة وأحقهم بالغبطة والرضا ، فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً ظفر بمثل ماظفر به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والاعجاب الذي لا حد له ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً في هذا العصر أكره خصومه وأصدقائه على أن يحمدوا له عمله في غير بخل ولا تقتير ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً في هذا العصر أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريره ، وأطلق السنة الشعراء بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفي السيد حين أذاع في الناس ترجمته لأخلاق أرسططاليس ، فقد أجمع الكتاب على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى اقتراقرهم في حب الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريره ، وشكر ما قدم الى اللغة العربية من خير بترجمته هذا الكتاب ، وليس يعنينا ما كتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف

وقراها الناس ، وانما الذى يعنيننا هو هذا الشعر الذى أطلق
به الأستاذ السنة الشعراء وأى الشعراء ! شوقى وحافظ ونسيم .
فاذا كان من الحق علينا أن نقدم الى الأستاذ هئنتنا الخالصة
بهذا الشاء الطيب الذى هو أهل له ولخير منه ، واذا كان من
حقنا أن نثبت فى هذا الفصل أننا لم نكن مخطئين فيما قدرناه
يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرستطاليس من أن
ظهور هذا الكتاب حادث أدبى ليس كغيره من الحوادث .
نقول اذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حقنا
أيضا أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التى أنطق الشعراء
بها كتاب الأخلاق لأرستطاليس لنتبين وجهاً من وجوه
القوة الشعرية فى هذا العصر عندنا بعد أن بينا فى الفصول
الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية فى هذا العصر وأنا أعلم
حق العلم أن من الاسراف أن نحكم على القوة الأدبية فى هذا
العصر بكتاب مهذب الأغاني وتهذيب الكامل وبلاغة العرب
فى الأندلس . وأعلم كذلك حق العلم أن من الاسراف والظلم
أن نحكم على قوة الشعر فى هذا العصر بهذه القصائد الثلاث
التي أنشأها شوقى وحافظ ونسيم فى مدح الأستاذ لطفى السيد
وترجمته لأخلاق أرستطاليس ، أعلم أن هذا اسراف وظلم

فان لشوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائد أخرى
قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفة من الجد والهزل فيها لذة
للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب
أن يلاحظ القارئ أنى لا أتخذ هذه القصائد عناوين
لشعرائها ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الاجادة
والاساءة ، ومن السمو والاسفاف ، وإنما هي فرصة نتحدث
اليك فيها عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أنحائهم فى الشعر
ومذاهبهم حين يعمدون اليه ، وليس من شك فى أنى لا أبخل
بالثناء الطيب العذب على هؤلاء الشعراء جميعاً ، فهم حين
انشأوا قصائدهم هذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة
هى عاطفة الانصاف وإكبار من يستحقون الاكبار ، والوفاء
لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا فى نفسه بالشئ القليل ولا
سيما بالقياس الى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد
على جلال خطره وعلومكاته فى أمته ليس هو بحيث يستطيع
أن يبتز ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر وما كان ذلك من
شأنه ولا من أخلاقه ، فشعراؤنا اذن صادقون غير متكفين ،
مخلصون غير متصنعين فيما قدموا الى الأستاذ من مدح وفيما
أهدوا اليه ، من ثناء بل أنا لا أبخل على شعرائنا الثلاثة بشئ

من الشناء غير قليل لما وفقوا اليه من الوجهة الفنية الخالصة
فكلهم قد وفق الى شيء من الابداع لا بأس به ، وكلهم قد جد
في تخير الألفاظ واتقان النظم وإحكامه وإقرار القافية في
نصاها فوفق من هذا كله الى الشيء الكثير ، وكلهم قد اجتهد
في الغوص على المعاني - كما يقولون - وتلمس الغريب الطريف
منها فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطلبة وانما عاد بشيء يمكن أن
يخصى له بين الحسنات الشعرية ، على أنى أستأذن شعراءنا
وأستأذن من قبلهم أستأذننا لطف السيد في أن أكون حراً
حين أنقد هذه القصائد ، فقد تعودت هذه الحرية وحرصت
عليها وأكبرتها عن أن أضحي بها في سبيل انسان مهما تكن
منزلة من الناس ومنى ، ولو كان هذا الانسان هو الأستاذ لطفى
السيد أو شوقي أو حافظاً أو نسيماً .

أريد أن أكون حراً ، واذن فأنا معتمر الى شعرائنا
الثلاثة اذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا الذكر أرسططاليس
ومدحه والاشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا
يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ذكروا أرسططاليس
ومدحوه وهم يجهلونه ويجهلون آثاره وأرجو أن يصدقوني
- وهم يصدقوني - اذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب

الأخلاق الذى أنشأوا من أجله هذه القصائد ، وما أظن أن
 عليهم بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما
 أحسب أنهم جميعاً قرأوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقاً ،
 وهنا أتردد بين العتب والثناء فقد يكون مما يستحق الثناء
 والاعجاب أن يعتمد الشاعر الى موضوع لا يدركه ولا ييط
 بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا
 يبرأ من احسان ، ولكنى ثقيل ملجاح ، شديد الطمع مسرف
 فى الحرص على المثل الأعلى ، فأنا لا أَرْضَى لشعرائنا الجهل ،
 ولا أحب لهم أن يعرضوا للأشياء الا اذا اتقنوها اتقاناً ،
 وظهروا على دقائقها وأسرارها حقاً. وقد أفهم أن يقول
 الـ عراء مالا يفعلون ، ولكن لا أفهم أن يقول الشعراء
 مالا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو فى ذلك أو أسرف ، فما
 كان الجهل مصدراً للخير ولا وسيلة للاجادة ولا طريقاً الى
 البراعة الفنية ، وما رأيك فى مثال يطمع فى ابتكار الآيات
 الفنية وهو يجهل التشريح ، وما يتصل به من تكون الجسم
 الانسانى وما الى ذلك من هذه العلوم ، التى لا سبيل الى
 الاجادة الفنية بدونها . إن الاجادة الفنية اذا كانت أثراً من
 آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوى ، والعواطف

الدقيقة والخيال الخصب ، فهي لغو اذا لم تستمد غذاءها
الحقيقي من العقل والعلم .

وربما كان شوقي أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب في هذا
الموضوع . نعم هو أحقهم بالعتب فهو من بينهم قد تعلق
بأرستطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ،
وخص له في قصيدته أكثر مما خص للاستاذ المترجم ، ولعلك
تدهش ، ولعل شوقي نفسه يدهش اذا قلت لك وله إنه لم
يمدح أرستطاليس وإنما مدح أفلاطون . . . نعم ، أراد
عمراً وأراد الله خارجة ! ولكنه أراد عمراً بالخير
فانصرف هذا الخير عن عمرو الى خارجة ، لأن الشاعر لم يحسن
تلمس السبيل الى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة
والحكماء رضية بطبيعتها لكان من حق أرستطاليس أن
يخاصم شوقي ، وأن ينفس على أفلاطون أستاذة هذا المدح
الذي جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقي أرستطاليس
وأراد الله أفلاطون . ولست في حاجة الى أن أطيل القول
في أن شوقي لم يمدح أرستطاليس ، فيكفي أن تقرأ قصيدة
شوقي لترى أنه يصف أرستطاليس بأنه سبق الى التوحيد
فأعلنه قبل البنية والخطيم ، وقبل المسيح أيضاً وبأنه كان

قدسى الروح ، وبأن لطفي صدى صوته الرخيم ، وبأن رسائله كالسلافة إذا جرت فى جسم النديم . واذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق الى اعلان التوحيد فليس هو أرسططاليس وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً فقد سبق فلاسفة الى اعلان التوحيد فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولكن الشئ الذى يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفا يونانياً يقرن الى المسيح ، وتعتبر فلسفته أصلاً من أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها ، وليس هذا الفيلسوف أرسططاليس وإنما هو أفلاطون ، أفلاطون صاحب المثل ، أفلاطون الذى أمعن فى طلب المثل الأعلى والذى استطاع أن يرقى بالنفس الانسانية والفكرة الالهية الى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعد. أما أرسططاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد به فى السماء ، ولهذا لم يصعد أرسططاليس فى السماء ، ولعله لم يرفع بصره الى السماء وإنما خفضه الى الأرض ، ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . واذا كان هناك فيلسوف تلاميذ فلسفته الشعر حقاً ، أو قل اذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً فهذا

الفيلسوف هو أفلاطون لا أرسططاليس . ولو عرف شوقي
إله أرسططاليس هذا الاله العاجز الجاهل المفتون بنفسه
المنصرف الى جماله عن كل شيء ، الذي لا يعلم الا نفسه ولا
يفكر الا في نفسه ولا يعجب الا بنفسه . أقول لو عرف
شوقي إله أرسططاليس هذا لرثى لأرسططاليس نفسه ولما
استطاع أن يقول :

من كان في هدى المسيح
وكان في رشد الحكيم
وغدا وراح موحداً
قبل البنية والحطيم

كلا ، لم يكن أرسططاليس في هدى المسيح ولا في رشد
الحكيم ، ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرسططاليس ، ولعله لم
يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء ، ولكن الشيء المؤلم
حقاً هو أن يقول شوقي عن أرسططاليس :

ورسائل مثل السلا ف اذا تمشّت في النديم
قدسية النفحات تسكر بالمذاق وبالشميم
يا لطف أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرخيم

أى الرسائل يريد ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن آثار
أرستطاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد ؟ ومن
الذى يستطيع أن يزعم أن فى رسائل أرستطاليس شيئاً
قليلاً أو كثيراً من هذه النفحات القدسية ؟ ومن الذى
يستطيع أن يزعم أن صوت أرستطاليس كان رخيماً ؟
أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء فى فهم المذاهب الفلسفية
- وإنما أريد شعراءنا خاصة - وأعذر شوقي وغيره اذا
خيل اليهم أن توحيد المسيح أو توحيد المسلمين هو توحيد
على كل حال ، وقد لا يصح أن نلج على شعرائنا فى أن يدرسوا
ما بعد الطبيعة ، ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل
أبو نواس ، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره
هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان الى هذا الحد فيخيل اليهم
أن أرستطاليس كان حلو النثر رخم الصوت قدسى النفحات
تشبه آثاره بالسلافة ، صف بهذه الأوصاف كلها أفلاطون
فلن تبلغ من وصفه ماتريد ، ولكن لا تصف بها أرستطاليس
فكم كد نثر أرستطاليس عقولاً وصدع رءوساً ؟ والأستاذ
لطفي السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيد بأن نثر
أرستطاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء

وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير، ولكنه نشر
عالم قد أتقن لغته، وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ويلائم
بينها وبين حاجات العلم والفلسفة. أنت لا تحمد أرسطاليس
ولا تحسن اليه بهذه الصفات، فقد لا يكون من الخير للعالم أن
تكون لغته ساحرة فتأثّر لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها.
وإنما هو محتاج الى الدقة والى التشدد في الدقة، والى أن يسمى
الأشياء بأسمائها. لولكني قد قلت لك إن شوقي أراد
أرسطاليس وأراد الله أفلاطون. ٨

على أنى أتقل من هذا العيب الى عيب آخر يشبهه، وقد
اشترك فيه شوقي وحافظ ونسيم وغيرهم من الكتاب أيضا،
وهو أنهم لم يقرأوا كتاب الأخلاق ولم يقدروه قدره ولم
يفطنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته، فهم قد فتنوا بلفظ
الأخلاق، وخيل اليهم أن أرسطاليس قد قصد إلى اصلاح
الأخلاق يوم ألفه، وأن لطفى قصد الى اصلاح الاخلاق يوم
ترجمه ولعل الرجلين قد فكرا في شيء من هذا، ولكني أستطيع
أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف
الكتاب وترجمته على لاعملي، وأن المؤلف والمترجم أرادا
خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا في الوعظ والارشاد. وما أظن

أن كتاب أرسططاليس فى الأخلاق يصلح مرجعاً للوعاظ والمرشدين، وإنما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه فى الجامعة وفى مدرسة الحقوق. وهل أستطيع أن ألفت شوقى الى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسططاليس حين قال :

يبنى الشرائع للعصور بناء جبار رحيم
فقد يكون أرسططاليس درس السياسة ووضع فى هذا
الدرس أصولاً قيمة ولكنه لم يبين الشرائع، وإذا كان هناك
فيلسوف يونانى شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين. +
كل هذا يدلنا على ما قدمت من أن شوقى لم يدرس
أرسططاليس قبل أن يمدحه فلندع هذا العيب الأساسى الى
ملاحظات أخرى فنية :

انظر الى هذه الآيات :

وسريت من شعب الألب به الى وادى الصريم
فتجارت اللغتان للغايات فى الحسب الصميم
لغة من الاغريق قيمة وأخرى من تميم
ألاحظ قبل كل شيء أنى لو كنت مكان شوقى لما ذكرت
الألب بعد أن زعمت أن أرسططاليس كان على نهج المسيح

وفي رشد الحكيم، فالألمب مستقر الوثنية اليونانية وعلى قمته
كان يقوم قصر كبير الآلهة زوس، وألاحظ بعد هذا أن
القافية قد عبثت بهذه الأبيات عبثاً غير قليل، فما وادى
الصريم هذا؟ وما صلة لطفي السيد بوادى الصريم، وهو انما
نقل أرسططاليس الى وادى النيل؟ وما شأن تميم؟ وهل من
الحق أن اللغة التي ترجم الكتاب اليها هي لغة تميم؟ وهل
نعرف لغة تميم حقاً؟ ولم لا تكون لغة قریش فهي لغة
القرآن وهي اللهجة العربية الوحيدة التي نعرفها حقاً؟ ولكن
تميم والصريم ينتهيان بالميم، وكنت أحب ألا يخضع شوقي
للقافية هذا الخضوع.

وبعد فان من الجحود والظلم ألا أثني على هذا البيت
القيم الملائم للحق ملاءمة تامة وهو قوله :

لمسوا الحقيقة في الفن ن وأدركوها في العلوم ١

هذا البيت آية في الصدق فقد لمس اليونان الحقيقة في
الفن وأدركوها دون أن يلمسوها في العلم، اكرر ان هذا
البيت آية في الصدق ومثل جيد للايجاز البديع. وقد أسرف
في الظلم ايضا اذا لم اثن على هذا الجمال اللفظي في قوله :

العاشقين العلم لا يألونه طلب الغريم ٢

المعرضين عن الصغائر والسعاية والميم
وان كان لفظ الصغائر لا يعجبني . وقد يكون من
الانصاف أيضاً أن أثني على هذه الآيات التي تمثل انصاف
شوقي ووفاءه وكرم خلقه :

قسماً بمذهبك الجيد ل ووجه صحبتك القسيم
وقديم عهد لا ضئيل في الوداد ولا ذميم
ما كنت يوماً للكناينة بالعدو ولا الخصيم
لما تلاحي الناس لم تنزل الى المرعى الوخيم
كم شاتم قابله بترفع الأسد الشقيم
وشغلت نفسك بالخصيب من الجهود عن العقيم
فخدمت بالعلم البلا د ولم تزل أو في خديم
ولندع قصيدة شوقي الى قصيدة حافظ ولن يكون موقفنا
مع حافظ أشد حرجاً ومشقة من موقفنا مع شوقي ، ذلك
لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر ، قلنا إن
شعراءنا الثلاثة لم يقرأوا كتاب أرسططاليس وما نظن أنهم
تجاوزوا مقدمة المترجم العربي ولكن حافظاً يزعم لنا أنه
قرأ الكتاب فيقول ؛

إني قرأت كتابه بين الخشوع والاعتبار

فإذا المؤلف ماثل جنب المترجم في إطار
وعليهما نور يفيض من المهابة والوقار
كلا يا حافظ ، لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ
الطفي السيد ، ولم تر المؤلف والمترجم ماثلين في إطار وإنما
تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذي تذكره ،
وأنا زعيم بأنك لن تجادل ولن تمارى فيما أقول . فلو أنك
قرأت الكتاب حقاً ورأيت الفيلسوفين في هذا الإطار
يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا . وهل
تريد أن تقنعني بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال
يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرسطاليس ويتفهمه دون
أن يوحى إليه الشعر آية من آيات البيان في وصف هذا
العقل الذي لم تعرف الانسانية مثله بعد ؟ كلا ، أنت
كشوقى لا تعرف أرسطاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذ لطفي
ولكنك أحق بالرضا وأقل تعرضاً للعتب من شوقى ، ذلك
لأنك ذهبت مذهب أرسطاليس فلم تلتمس ما ليس في يدك
ولم تتجاوز الأفق الذي أنت فيه ، مدحت لطفي خاصة
وتأدبت مع أرسطاليس لأكثر ولا أقل ، ومن هنا أحسنت
في مدح لطفي احساناً لا بأس به وان لم يقصر عن مثله شوقى

ولكن حدثني عن هذا البيت :

بكتاب ~~أرسطاليس~~ رسطاليس تا ج نوارد الفلك المدار
 ألم يثقل عليك ؟ أتحب هذه الاضافات ؟ وما معنى
 « نوارد الفلك المدار » ؟ وما معنى تاج هذه النوارد ؟ وما
 معنى أن يكون كتاب أرسطاليس تاجاً لهذه النوارد ؟
 أتعرف أنى لا أفهم شيئاً الا أنك سلكت هذه الطريقة
 الطويلة لتصل الى لفظ المدار لتظفر بقافية وتحشر في
 القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه ، وكذلك استعبدتك
 القافية في قولك :

تزن الكلام كأنه ماس بميزان التجار
 فما ميزان التجار ؟ وما الحاجة اليه الا لأنه قافية ؟
 ولكنى أثنى في غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقاً
 الصادقة حقاً :

قالوا لقد هجر السيا	سة وانزوى في عقر دار
ترك المجال لغيره	ورأى النجاة مع الفرار
لا تظلموا رب النهى	وحذار من خطل حذار
هجر السياسة للسيا	سة لا لنوم أو قرار
لو أنهم علموا الذى	ينبى لهم خلف الستار

وان كنت أجد شيئاً من الابتذال في قوله (ترك المجال
 لغيره) وأشعر بأن لفظ (مع) شديد القلق في هذا الشطر :
 « ورأى النجاة مع الفرار » وهلا قال : ورأى الركون الى الفرار .
 وهل يأذن لي حافظ في ألا أحب « لقم الطريق » في قوله
 واجعل على لقم الطريق صوى تلوح لكل مسار
 وقد يكون اللفظ صحيحاً ولكن ليس كل صحيح جيداً
 ملائماً للغة الشعر ، وأكبر ظنى أننا مدينون بهذا البيت كله
 للفظ السارى فهو قافية والسرى يستتبع الصوى والأعلام ،
 والصوى والأعلام تستتبع الطريق ولكنها لا تستتبع « لقم
 الطريق » وهل يغضب حافظ اذا لم أرتح الى قوله :

عجل بها قبل « الفسا د » وقبل عادية البوار
 وأنا أعلم أنه يطلب الى الأستاذ لطفى السيد أن ينشر
 كتاب « السياسة » قبل كتاب الكون والفساد ، ولكن ألا
 يشاركني حافظ في أن ضرورات الشعر قد تكون منكورة
 أحياناً ، وفي أن التعبير بالفساد عن كتاب الكون والفساد
 ضرب من هذه الضرورات المنكرة ، ولكن أشد من هذه
 الضرورة نكراً (عادية البوار) التي جاءت لا أدري لماذا ؟
 أستغفر الله جاءت للقافية فأخرها راء ، وويل لشعرائنا من القافية !

وسواء أَرْضِي حافِظ أم غَضِب فسأقول ما في نفسِي
ورزقِي على الله - كما يقولون - ظن حافِظ أن كتاب السياسة
لأرستطاليس قد يعيننا على معالجة السياسة الانجليزية وحل
المسألة المصرية ، ولهذا آثره على كتاب الكون والفساد
وطالب الى الأستاذ لطفى أن يقدمه وأن يستعجل في نشره .
ولم لا ؟ ألسنا متعجلين في حل المسألة المصرية ، تتحرق
أكبادنا ظمأ الى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ولكن
كتاب السياسة لا يقدم ولا يؤخر في حل المسألة المصرية ،
ولا في فهم السياسة الانجليزية ، ولن ينتفع به الوفد الرسمي
الذي سيعالج شامبرلين أو كرزن أو ماكدونالد ، كما أن الشيخ
الجربي لن ينتفع بكتاب الأخلاق حين يريد أن يعظ المجرمين ،
ولندع قصيدة حافظ الى قصيدة نسيم .



ولكني متهم حين أعرض لنسيم فقد تفضل بالثناء علىَّ
وأشار الى أن لي ثراً يعجبه . على أني سأكون حراً
وسأغضب نسيماً كما أغضبت صاحبيه فهو مثلها ينتظر من كتاب
الأخلاق ما ينتظران وما لم ينتظر أرستطاليس ولا لطفى ،
وكما أن شوقي قدأ خطأ حين قارن بين أرستطاليس والمسيح فقد

أخطأ نسيم حين ذكر هو ميروس على أنه من شعراء المدح،
 وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفى شاعر كهو ميروس ، فما كان
 هو ميروس مادحاً ولا هو من أصحاب المديح وإنما هو ميروس
 وأصحابه أهل قصص واشادة بذكر الأبطال الذين انقضت
 عصورهم، فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو بندارو تلاميذه
 وشعراء الاسكندرية خاصة كالليماك وتيو كريت وغيرها
 وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية وتكلف
 من شأن القافية ، ولكنى أعترف - لا لأن نسيماً ذكرنى! -
 بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتى صاحبيه بل أعترف
 بشيء آخر أجل من هذا خطراً ، أعترف بأن فى قصيدة نسيم
 شيئاً من الخفّة لم يوفق اليه شوقى ولا حافظ وانظر إلى
 مطلع قصيدته :

شعر يزف بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
 ما عيب مرقصة خلت من ذكر غانية لعب
 وفى هذا الكلام - على أنه عادى - شيء من الظرف
 والعدوبة ، وفى قصيدة نسيم شيء آخر ، وهو أن شخصيته
 ظاهرة مؤلمة مؤثرة ، فهو لم ينس ابنه الذى فقده ، ولم
 يكره وهو شاعر أن يتحدث بحزنه وبثه الى ممدوحه وهو

فيلسوف ، وأحسب أن الأستاذ لطفى تأثر بهذه الأبيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح نسيم وصاحبيه فأنا أعرفه حساساً رقيق النفس .

وفي قصيدة نسيم هذه الأبيات التي تقدمه على صاحبيه لأن فيها فكرة طريفة جريئة ، أليس يتمنى على جلالة الملك أن يكل تربية وليّ العهد الى لطفى مترجم أرسططاليس كما وكل فيليب تربية الاسكندر الى ارسططاليس :

ليت المليك وقد رأى ما فيك من خلق رحيب
يدلى اليك بناشئ في حجر سدته ريب
تسقيه من نهى العلو م ووردها غير المشوب
وتريه في ريعانه وضح المسالك والدروب
فهنالك الفاروق يصبح كابن فيلبس المهيب
يمشى بنورك في الصبا ويشيد باسمك في المشيب
أنا أقدم في هذه المرة نسيماً على صاحبيه .

شعر ونثر

صديقي العزيز هيكل

أدركني مقالك الممتع حول الشعر والنثر في هذا البلد الذي أويت إليه من بلاد لبنان، معتزلاً كل حركة علمية أو أدبية إلى حين. ولعلك تذكر أنني كنت وعدتك بطائفة من الفصول أرسلها إليك من لبنان أدرس فيها درساً رقيقاً شعر شوقي والبارودي. ثم آثرت الكسل على العمل والراحة على الجهد، فاعتذرت إليك من هذا الوعد وسافرت ولم اصطحب شعر شوقي ولا شعر البارودي. ومع ذلك فلي في الشاعرين رأي أنا على اظهاره حريص، لا لأنني أراه فحسب، بل لأنني أرى فيه عدلاً وانصافاً، وأرى أن هذا الجيل الذي نحن فيه قد فتنه الجهل والشهوة فظلم وجار، وأصبح من الحق على النقد أن يرفعوا هذا الظلم والجور. ورغم هذا كله فقد آثرت نفسي بالراحة وأرجأت إعلان هذا الرأي إلى حين، وأويت إلى هذه الناحية الجميلة من نواحي لبنان

أتذوق فيها عذوبة الماء ورقة الهواء واعتدال الجو وحسن
أخلاق الناس . وكنت أظن أن لن يصرفني عن هذه اللذة
صارف حتى أعزم العودة الى مصر لأستأنف فيها حياتنا
الشاقة مع أول السنة ، ولكني تورطت فطلبت اليك قبل
السفر أن ترسل الى السياسة ، وتورطت فجعلت أنظر في
السياسة كلها وصلت الى ، وتورطت فقرأت إعلاناً أذاعت
فيه السياسة أنها ستنشر لك فصلاً في الشعر والنثر ، فتمنيت
ألا تصل الى السياسة يوم تنشر لك هذا الفصل لأنني لا
أستطيع أن أرى لك شيئاً في الأدب دون أن أقرأه ، وأن
أقرأه في عناية وتدبر ، ولأنني كنت كما قلت معتزماً ألا أقرأ
شيئاً ذا بال . فلما وصل الى هذا الفصل لم أجد بداً من قراءته
وأنا أشكر لك أجمل الشكر هذه الساعة اللذيذة التي أنفقتها في
قراءة هذا الفصل الممتع . فهو فصل ممتع حقاً في لفظه وفي
معناه وفي أسلوبه وفي طريقة عرضه على القراء . ويظهر
لي أنك قد أصبحت من أشد الناس شرها الى الشناء
والاعجاب ، ولكنه شره محمود ، فأنت لا تكتب الا
اضطرت قراءك الى الشناء والاعجاب ، وأنت لا تسمع ثناء
ولا تحس اعجاباً الا ازددت اجادة وأمعنت في الاتقان .

ولست أدري الى أين يذهب بك هذا الامعان في اجادة
البحث واتقان التفكير ، والتوفيق الى الجمال الفنى فيما تكتب ،
وقد قيل ان لكل شىء حداً ، وأنا أومن بأن للثناء حداً
وللاعجاب حداً نحن منتهون اليه ، ولكنى أومن بأن ليس
للجمال الفنى حد ، وإنما هو مثل أعلى يمضى أمامنا ونسعى نحن
في أثره فنبلغ منه شيئاً ثم نحس أن ما بلغناه ليس كل شىء ،
فنسعى ونسعى وهو يمضى ويمضى ، وإذا فسيزداد حظك من
الاتقان والاجادة ، وسنتهى نحن من الثناء عليك والاعجاب
بك الى حد لا نستطيع أن تتجاوزه ، وسيكون بيننا وبين
حقك علينا أمد ليس الى قطعه من سبيل .

أنت موفق حين تلاحظ أن النثر العربى فى هذا العصر
قد نهض نهضة قيمة وأصبح أداة صالحة للتعبير عن حاجة
العقل والشعور بعد أن تطور العقل والشعور فى هذا العصر
تطوراً لم تعرفه العصور القديمة العربية . وفى الحق أنا نستطيع
الآن أن نصف ألواناً من الآراء والخواطر فى فنون من
القول مرنة سهلة راقية لم يكن لأبائنا بها عهد . وأنت موفق
أيضاً حين تلاحظ أن النثر العربى الحديث على رقيه وامعانه
فى هذا الرقى لم يزل فى حاجة الى كثير من المرونة واللين

والثروة اللفظية ، وأنه قد يحتاج الى زمن طويل وجهد عظيم قبل أن يبلغ حاجته من هذا كله . وآية ذلك أنا نعجز أحيانا كثيرة عن أن نصف بعض الخواطر التي تخطر لنا والعواطف التي تجيش في صدورنا ، بل نعجز عن أن ننقل خواطر وآراء يراها الأوربيون سهلة يسيرة ، بل مبتدلة وتضيق عنها ألفاظنا وأساليبنا لأنها مقيدة بطائفة من القيود اللغوية والنحوية الثقيلة التي لم نتفق بعد على طريق للتخلص منها . وآية ذلك أيضاً أننا نضطر في أحاديثنا وفي كتاباتنا الى أن نستعير جملاً فرنسية أو انجليزية أو ألمانية أو الى أن نستعير جملاً من لغتنا العربية العامية .

أنت موفق في هذا كله ، وموفق أيضاً حين ترى أن طائفة من الكتاب المحدثين قد استطاعوا أن يتمايزوا بأساليبهم وشخصياتهم وآرائهم ، وأن يستقلوا عن القدماء دون أن يتصل كل واحد منهم بواحد من أولئك القدماء . كل هذا حق ، وحق أيضاً أن الشعر بعيد كل البعد عن أن يصل الى حيث وصل النثر من الرقي والقوة والمرونة ، وأن الشعراء بعيدون كل البعد عن أن يصلوا الى ما وصل اليه الكتاب من التمايز بالفاظهم وأساليبهم وآرائهم

وشخصياتهم ، وأن يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء .
كل هذا لا سبيل الى الشك فيه ، وهو شيء نحسه جميعاً وقد
سبقنا أنت فأعلنته وعرضته علينا وعلى الناس . ولكن لى
بعد هذا ملاحظتين أحب أن أعرضهما عليك ، وأحب أن تفكر
فيهما بعض التفكير ، وأرى إن فعلت فقد نربح من هذا فصلاً
ممتعاً كالفصل الذى فرغت من قراءته منذ حين .

فأما الملاحظة الأولى فهي أنك قد وفقت الى كل هذه
الحقائق الواقعة واجتهدت فى عرضها وتوضيحها ، ولكنك لم
تبحث عن الأسباب التى دعت الى وجود هذه الحقائق
الواقعة ، فلماذا رقى النثر وسهل وساغ حتى أصبح أداة صالحة
للتعبير ؟ ولماذا جمد الشعر أو قل ظل جامداً لا لين فيه ولا
مرونة ولا جدة ولا حياة ؟ ولماذا استطاع الكتاب أن
يتمايزوا بشخصياتهم القوية وأن يفرضوها على الناس فرضاً ،
وعجز الشعراء عجزاً فاحشاً عن أن تكون لهم هذه
الشخصيات حتى أصبح من أيسر الأمور على الناقد اذا قرأ
قصيدة لشوقي أو لحافظ أو غيرهما أن يرد هذه القصيدة الى
أصلها القديم الذى أخذت منه ، أو أن يرد كل جزء من
أجزاء هذه القصيدة الى أصله الذى أخذ منه ؟

حسن أن تذهب أيها الصديق مذهب أصحاب العلم الطبيعي فتلاحظ الظواهر الأدبية وتسجلها . ولكني قلت لك غير مرة إن أساليب العلماء وحدها قد تعجز عن الكفاية في الأدب وفي النقد بنوع خاص ، وما الذي أفدته أنا حين عرفت أن النثر قد ارتقى وأن الشعر ما زال جامداً ؟ ألسنت ترى أن من الخير أن أعرف لم ارتقى النثر وجمد الشعر لأتزيد من أسباب الرقي ولأجتهد في أن أتقى أسباب جمود الشعر وأخلص الشعراء منها ؟

والحق أني فكرت كثيراً في هذه الأسباب ، وفكرت فيها منذ اعوام حين كنا نعمل معاً في تحرير السياسة ، وحين كنا نلاحظ في شيء من الرضا والأمل أن فننا النثري يزداد في كل يوم مرونة ويصبح في كل يوم أداة صالحة في أيدينا ، نتسلط بها على الخواطر والآراء والمعاني المتباينة في جميع أنحاء الحياة ، وحين كنا نضحك ونهاللك على الضحك من شعر الشعراء وجموده وعجزه عن الحركة وخلوه من الحياة ، وحين كان كل واحد منا يلقي على صاحبه هذه الكلمة الكاذبة التي نقدم بها إلى القراء شعر أصدقائنا الذين نسبغ عليهم مبتسمين في سخرية ورحمة وإشفاق ، أشد الألقاب

ضخامة وفراغا !

أنت تذكر هذه الأوقات، وكيف تنساها ومازلت فيها؟
أليست تصل اليك من حين الى حين قصائد شوقى وحافظ
وغير شوقى وحافظ فتفتن أو تكلف من أصحابك من
يفتن فى ترصيع الألفاظ وتأليف الأسجاع مقدمة بين يدي
هذه القصائد، وإن على شفيتك لا بتسامة لو رآها الشعراء
وفهموها لأعرضوا عن الشعر أو لسلوكوا بالشعر طريقاً غير
هذه الطريق العقيمة التى لا يعرفون لها آخرًا؟

فكرت فى هذه الأسباب فلم أنته الا الى سبب واحد،
يخيل الى أنه المؤثر الحقيقى فى رقى النثر الحديث وجمود
الشعر فى هذا العصر، وأنا أعلم أن الشعراء سيدهشون
ويضحكون وسيغضبون ثم يشورون حين أعرض عليهم هذا
السبب. ولكنى قد تعودت من شعرائنا الدهش والضحك
والغضب والثورة وما هو فوق هذا. فسأعرض عليهم هذا
السبب مبتسما بل ضاحكا ان لم يقنعهم الا بتسام.

ط شعراؤنا جامدون فى شعرهم لأنهم مرضى بشيء من
الكسل العقلى بعيد الأثر فى حياتهم الأدبية، فهم يزدرون العلم
والعلماء ولا يكبرون الا أنفسهم ولا يحفلون الا بها، وهم

لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث
والتفكير . وكيف يقرءون أو يبحثون أو يفكرون وهم
أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد في السماء
بجناحيه في غير تفكير ولا بحث ؟ فلما البحث والتفكير فشان
العقل ، والعقل عدو الخيال وهو عدو الشعر . والعقل ميزة
الفلاسفة وميزة العلماء ، والشعراء أجل وأعلى أن يكونوا
فلاسفة أو علماء إنما هم شعراء ! وإذا قلت شعراء فقد قلت
كل شيء ، أو قل انك قلت شيئاً لا يفهم . وأنت تجلس الى
شعرائنا وتحدث اليهم وتسمع لهم ، فهل رأيت منهم الا
ازدراء لفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء وبحث الباحثين ؟
هذا فيما أرى هو السبب الحقيقي لجمود الشعر العربي في
هذا العصر ، فليس من الحق في شيء أن الشعر خيال صرف ،
وليس من الحق في شيء أن الملكات الانسانية تستطيع أن
تتمايز وتتنافر فيمضى العقل في ناحية لينتج العلم والفلسفة ،
ويمضى الخيال في ناحية لينتج الشعر . وإنما حياة الملكات
الانسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون ، ومضطرة إلى
الفشل والاختفاق اذا لم يؤيد بعضها بعضاً . وأنا زعيم لك
بأن العالم في معمله يستخدم الخيال أكثر مما يستخدمه الشاعر ،

ولولا هذا لما تصور ألوان التجارب والفروض الغربية التي
تنتهى به دائماً الى استكشاف الحقائق العلمية الصحيحة .
فالعالم يستخدم الخيال ويستغله ويستعير جناحيه يطير بهما
ويصعد ويمعن فى التصعيد ويعود ومعه نتائج القيمة . أما
الشاعر (العربى) فيزدرى العقل ويستعين به ولا يستعير
مصباحه ولا يهتدى بنوره . وإذا فهو لا يستطيع أن يتقدم
لأنه فى ظلمة حالكة ، وهو لا يستطيع أن يرى أمامه
فيضطر الى أن ينظر الى الوراء ويستعير شعر القدماء وخيال
القدماء . ومن الغريب أنه يستعير شعر القدماء فى غير فهم
له ولا بصر به ، فان القدماء لم يعتمدوا على الخيال وحده وإنما
اعتمدوا على الخيال واستغلوا العقل استغلالاً عفيفاً . وأنا
أستطيع أن أوكد لشعرائنا أن القدماء من شعراء العرب فى
جاهليتهم واسلامهم كانوا أصحاب خيال وعقل وعلم ، بل
كانوا فى الجاهلية يحتكرون العلم احتكاراً دون غيرهم من
الناس . فأما فى الاسلام فقد كان الشعراء الأمويون يعلمون
حظ عصرهم من العلم . وأستطيع أن أوكد لشعرائنا أن
جريراً والأخطل كانا يعلمان علم الشعبى وابن عباس وغيرهما
من علماء عصرهما ، وكان أبو نواس محدثاً أخذ عنه الشافعى

وكان يشارك المتكلمين في مقالاتهم، ويأخذ بحظ موفور من فلسفه الفلاسفه، ويسخر من النظام ومقالاته في الكبيرة والتوبة وما اليهما. فأما المتنبى وأبو العلاء فالنظر في شعرهما زعيم بأن يثبت لشعرائنا أنهما كانا أصحاب عقل وفلسفه، وأن حظهما من القراءة والدرس لم يكن أقل من حظ العلماء والفلاسفه الذين عاصروهما.

الفرق بين الشعراء والكتاب في هذا العصر: أن الشعراء لا يقرأون ولا يتعلمون ولا يعنيه أن يقرأوا أو يتعلموا، فهم غير متصلين بعصورهم، وهم لذلك عاجزون عن التقدم والتطور، أما الكتاب فيقرأون ويتعلمون ويتزيدون من القراءة والعلم، ولا يرون الحياة الا قراءة وعلمها. فهم لذلك متصلون بعصرهم يقرأون فتضطرمهم القراءة الى التفكير، ويتعلمون فيضطرمهم العلم الى البحث، وتنشأ لهم من هذا شخصية قوية ملاكها العقل والخيال والابتكار معاً، ولست أقيم على ذلك دليلاً معوجاً أو بعيد المنال، وإنما ألفتك الى نفسك فأنت في قراءة متصلة. وأنت لا تعرض لكتاب تنقده حتى تقرأه أو تقرأ أكثره وأنت لا تنقد هذا الكتاب حتى تقارن بينه وبين ما قرأته من أمثاله. فأما شعراؤنا فيقرأون في السماء وفي السحاب ولكنهم لا يقرأون في الكتب!

ولقد ترجم أستاذنا لطفى السيد أخلاق أرسططاليس
فنقدته أنت ونقده العقاد ونقدته أنا، وكلنا قرأ الكتاب كله أو
أكثره في العربية وفي الفرنسية أو الانجليزية أو اليونانية، وكلنا
قارن بين الترجمة وأصولها، وكلنا فكر في فلسفة أرسططاليس
وفلسفة أستاذه أفلاطون، وكلنا حاول أن يقدر الأمد بين فلسفة
أرسططاليس والفلسفة الحديثة، وكلنا حاول أن ينقد أو يقرض
عن علم وبصيرة. وتقدم لتقرير الكتاب شعر شوقي وحافظ
ونسيم، وأنا أستحلف شعراءنا الثلاثة بخيالهم العزيز عليهم
هل قرأوا ترجمة الأستاذ لطفى السيد أو أصلاً من أصول هذه
الترجمة، بل هل قرأوا فصلاً واحداً من الترجمة أو الأصل،
أما أنا فاقسم ما قرأوا من الترجمة ولا من الأصل شيئاً،
ولذلك أجتنب حافظ ونسيم موضوع الكتاب وفلسفة
صاحبه وذهباً يمدحان لطفى السيد وأرسططاليس، وللطفى السيد
شخصية معروفة ولأرسططاليس شخصية معروفة. ويستطيع
الشاعر أن ينسج حول هاتين الشخصيتين ألفاظاً حلوة خلابة
لا تخلو من ضخامة ولا تبرأ من فراغ: فأما شوقي فأراد أن
يمتاز فعرض للفلسفة وفلسفة أرسططاليس، ولكنه لم يستقها
من مصادرها كما يفعل العلماء، لأنه لا يجب أن يقرأ ولا يليق

به أن يقرأ وكيف يقرأ أوله خيال يستطيع أن يصعد في السماء
 فيرى فلسفة أرسطاليس في الجوزاء، وفلسفة أفلاطون في الثريا
 وفلسفة سقراط في المريخ، فيأخذ من هذه الفلسفة ما يشتهي؟
 وقد صعد خياله يومئذ في السماء وتنقل بين الكواكب
 السيارة والثابتة، ثم تنزل إلينا بفلسفة أضافها إلى أرسطاليس
 فإذا هي فلسفة أفلاطون وقد نبهته إلى ذلك يومئذ (في السياسة)
 فغضب وغضب أصحابه وانصاره وتحدث بعضهم بأن شوقي
 لم يخطئ، وإنما أخطأ أرسطاليس! وكيف لا وخيال الشعراء
 وخيال أميرهم بنوع خاص أصدق من فلسفة الفلاسفة ومن فلسفة
 المعلم الأول نفسه؟ ولو أنك قرأت شعر شوقي أو شعر حافظ
 أو شعر نسيم أو شعر من شئت من هؤلاء الشعراء المعاصرين،
 والتمست العلة لخلو هذا الشعر من الشخصية الحية لما وجدت هذه
 العلة إلا في أن شعراء نايسرفون في الكبرياء فيؤثرون الجهل على
 العلم والكسل على العمل، ويقرأون في الفضاء بدل أن يقرأوا
 حيث يقرأ الناس، وهل كان فيكتور هوغو أو لامارتين
 من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا؟ كلا إن الشعراء
 الغربيين كشعراء العرب القدماء، يتصلون بعصورهم اتصالاً
 متيناً، يقرأون ويدرسون ومنهم الطبيب ومنهم الطبيعي ومنهم

أرى في شعرنا شعراً

صاحب الكيمياء ، ومنهم من يتصرف في فنون العلم المختلفة .
 مثل شعرائنا كمثّل علماء الدين عندنا ، شعراؤنا يكتفون
 بخيالهم ، ويعتمدون عليه وحده فينوء بهم هذا الخيال ، ويعجز
 عن أن يرتفع في الجو ، ويصبح من العقم بحيث ينتج هذا
 الشعر الجامد الذي تقرأه . وعلماء الدين يكتفون بكتبهم القديمة ،
 ويحملونها كل شيء فتثقل بهم ويصيبهم العقم والفساد ، بينما
 شعراء الغرب وعلماء الدين في الغرب يقرأون ويتعلمون
 ويتصرفون في الفنون ، فهم علماء قبل أن يكونوا شعراء وقبل
 أن يكونوا قسيسين .

وظاهرة الكسل هذه التي نجدها عند الشعراء ، والتي تفسد
 عليهم الشعر تنتقل منهم بطريق للعدوى - فيما يظهر - الى القراء
 فيصيبهم الكسل هم أيضاً ، فيصيبهم هذا الكسل العقلي فيفسد
 عليهم ذوقهم الأدبي ، واذا هم يحبون هذا الشعر ويكلفون به
 بل يكتفون به بل يعجزون عن أن يسيغوا أى شعر آخر ، فيه أثر
 ما من آثار الحياة العقلية القوية . مثلهم في ذلك مثل الرجل
 الذي عود معدته لونا أو ألواناً من الطعام اليسير السهل الذي
 لا يغذى ولا يجهد ، فاذا اضطر الى لون آخر من ألوان الطعام
 فيه شيء من دسم أو غذاء لم يسهغه ، فان أساغه لم يهضمه . ومن

هنا لا يميل قراؤنا الى هذا الشيء القليل من الشعر القيم، الذي يظهر فيه أثر العقل كما يظهر فيه أثر الخيال، فيجب أن نكون منصفين، وأن نعترف بأن من شعرائنا من تكرر طبيعتهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب أن تظهر آثار هذا كله في شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من قرائهم تشجيعاً، ولا يرون من أقرانهم الشعراء الا حسداً وحقداً وحرماً شعوا، تعان عليهم جهراً مرة ومن وراء ستار مرة أخرى . وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين أذكر في مصر منهم خليل مطران والعقاد . وفي العراق معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي ولكن كثره القراء تؤثر على شعر هؤلاء شعر شوقي وحافظ وهي تؤثر هذا الشعر لأن حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين : فاما أن يدعوا هؤلاء القراء ليروج شعرهم ويشبوا لمنافسة خصومهم، وإما أن لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا في مذهبهم الشعري لأنهم يقولون الشعر لأنفسهم قبل أن يقولوه للناس ، ومن الذين يدعون للقراء فيسيئون الى أنفسهم والى الشعر، ويؤخرون تطور الشعر تأخيراً عليهم إثمه : مطران فانا أعرفه من أشد الناس ميلاً الى القراءة والدرس ، ومن

أحرصهم على أن يكون شعره مظهرًا لعقله وخياله معاً. وقد قرأت له شعراً أشهد أني لم أقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس بهرج اللفظ وزخرف الأسلوب. ولكنه يحس من قراءته فتوراً، ومن أقرانه إعراضاً وازدراءً وأزوراراً فيجاري أقرانه ويقول من الشعر مثل ما يقولون، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون. ومن الذين لا يحفلون بأعراض القراء وكيد الخصوم، وإنما يمضون في طريقهم جادين لا يلوون على شيء لأنهم يؤمنون بمذهبهم في الشعر ويتخذون من هذا المذهب لهم فلسفة أدبية عباس العقاد وجميل صدقي الزهاوي، قد لا تعجبني أحياناً صورهما اللفظية، وقد يقصران أحياناً عن الإجادة اللفظية الممتعة، ولكن خصومهما يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون، دون أن يوفقوا إلى إثبات أننا حين نقرأ شعر هذين الرجلين لا نقرأ كلاماً فارغاً ولا نخرج منه كما دخلنا فيه، وإنما نرى فيه شخصية لها وزن وقيمة وعقلية تفكر وتعرف كيف تعلن تفكيرها إلى الناس.

فانت ترى أيها الصديق أن ظاهرة الكسل العقلي تظهر أولاً عند الشعراء، ثم تنتقل منهم إلى القراء ثم تعود من القراء إلى الشعراء، فتنتج فساد الشعر والذوق والخلق معاً، وتحول

بين هذا الفن الأدبي وبين حقه من التطور والتجديد .
وقد أنستني هذه الملاحظة أو كادت تنسيني الملاحظة
الثانية التي ألاحظها على مقالك القيم ، فأنت مصيب حين
تلاحظ أن الشعر في العصر العربي كان كل شيء في الأدب
العربي . ولكنني أخشى أن يكون إطلاق هذا الحكم مبعداً
لك بعض الشيء عن الصواب . فقد كان للعرب العباسيين
نثر ، وكان لهم نثر قيم . وليس ذنب العرب أننا لم نقرأ هذا النثر
ولم ندرسه كما قرأنا الشعر ودرسناه ، وإنما ذلك ذنبنا نحن !
وأحسب أنك لو عנית بأدب العصر العباسي عناية صالحة
لغيرت رأيك بعض الشيء في النثر ، ولوافقتني على أن الشعر
كان ظاهر المكانة في الأدب العباسي ؛ ولكن النثر لم يخل من
جمال ورونق فني صحيح . على أن الآية قد انعكست الآن فأصبح
الأدب العربي الحديث نثراً كله وأصبح الشعر بفضل الشعراء
وكسالمهم العقل فناً عرضياً ، لا يحفل به إلا اللهو والزينة والزخرف ،
فاذا أراد بنك مصر أن يفتح بناءه الجديد طلب الى شوقي
قصيدة فنظم له شوقي هذه القصيدة ، واذا أرادت دار العلوم
أن تحتفل بعيدها الخمسيني كما يقولون طلبت الى شوقي والجارم
وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد فنظموا لها القصائد . واذا

مات عظيم وأريد الاحتفال بتأيينه ، أو نبه نابه وأريد الاحتفال
بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر في المدح والثناء فنظموه
كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسي
الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا
نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقي أو حافظ ، كما أننا لا نتصور
عيداً أو مأتماً بغير مغن أو مرتل للقرآن ! فأما الشعر الذي
يقال لنفسه ، الذي يقال ليجلو مظهره من مظاهر الجمال الطبيعي ،
الذي يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذي
يقال لا ليلمق عاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء ،
فلا تلتسمه عندنا ولكن التسمه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم
لأنفسهم كرامتها ، فربأوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة .
وأنت أيها الصديق دعوت الى الاحتفاء بتاجور حين
مر بمصر ، وكنت قوام هذا الاحتفاء وأنت لم تحتف بتاجور
الا لأنك قرأت شعره فأعجبك وراقك ، كما يعجبك ويروقك
شعر النابيين من أهل أوروبا القديمة والحديثة . أفترى أن
لتاجور ديواناً أو مجموعة قصائد وقفت على المدح والثناء
وافتاح المصارف والاحتفال بالمدارس ؟ ! أأست تلاحظ أن
شعر تاجور شعر انساني ، وأن شعراؤنا شعر أشخاص

وظروف ؟ ! ولتاجور فلسفة كما للعرى والمتنبى فلسفة ؛ فإين
فلسفة شوقى أو حافظ أو البارودى أو مطران ؟ ! وتاجور
ترجم شعره الى اللغات الأوروية فأصبح شاعراً عالمياً يكبره
الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر
شوقى أو حافظ الى الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية يقرأ
ويعجب ويخلب العقول ويضمن لأصحابه جائزة نوبل كما
ضمنها لتاجور ؟ كلا ! وليس مصدر ذلك الا أن تاجور لا
يزدرى العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده ، وأن أصحابنا لا
يلتمسون شعرهم فى العالم الحقيقى المعقول ، وإنما يلتمسونه فى
هذا الدخان الذى يرسلونه من أفواههم حين يدخلون السجائر
أو الشيشة :

وأرأنى قد أطلت عليك ولا أقول أطلت على القراء ، فأنا
لم أكتب للقراء وإنما كتبت اليك أنت . وأكبر ظنى أنك
ستذيع هذا الكتاب ، فأنت فى حل من ذلك ان شئت . وان
كنت أوتر أن تستبقه لنفسك . ولكنى ألح عليك إن
اعتزمت نشر هذا الكتاب ألا تمسه بتغيير أو اصلاح ، فأنا
من أشد الناس بغضاً لهذا النوع من التغيير والاصلاح . وأنا
أحب أن يعرفنى الناس كما أنا ، لا كما تحب أنت أن يعرفونى أوثر أن

يشتم من هذا الكتاب

يعرفني الناس كما أنا فيكرهوني على أن يعرفني الناس كما تريد
أنت فيجبوني . وأنا أهدي اليك تحية ملؤها المودة الصادقة .

الرثاء في شعر حافظ

رحم الله حافظاً ! ما أرى أن الذين سيعرضون لرثائه من
الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان
يبلغه هو حين كان يعرض لرثاء الأعلام الذين كان يفقدهم
هذا البلد من حين إلى حين !

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها
إجادة الرثاء واثقانه والبراعة فيه ، كانت قوية الحس كأشد
ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال
مزاج . وكانت إلى ذلك وفيه رضية لا تستبقي من صلاتها
بالناس إلا الخير ، ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى
للاحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، ونصبه
للناس مثلاً يحتذى ونموذجاً يتأثر . وكانت الى هذا وذاك
ترى ديناً عليها ، لا أقول لنفسها ولا أقول للناس ، وإنما أقول
للفن والحق والتاريخ . لا ترى خيراً إلا سجلته ، ولا تحس
معروفاً إلا أذاعته ، كأنما كان الذين يحسنون الى أنفسهم أو

الى خاصتهم أو الى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون
الى حافظ نفسه ! وكأتما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه
أن يشكر للمحسن إحسانه ، ويسجل لصاحب المعروف
معروفه ، مهما يكن مصدر هذا الاحسان والمعروف ، ومهما
يكن موضوعهما ! فهذا أحد الأمرين اللذين كانت تمتاز بهما
نفس حافظ : حسن قوى دقيق ، وخلق رضى كريم . فأما
الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية
الكرمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله
العليا .

رحم الله حافظاً ! لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما
كانت مصر كلها ، بل الشرق كله ، بل الانسانية كلها في كثير
من الأحيان تعيش في هذا الرجل ، تحس بحسه ، وتألم بقلبه ،
وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين شعراء هذه
الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه
ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرأون شعره الآن
والذين كانوا يقرأون شعره في حياته ، والذين كانوا يستمعون
له إذا أنشد الشعر في المجالس الخاصة والمجامع العامة ؛
يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة

الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من
يأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ،
وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريباً أن تقع
الكوارث من نفسه أشد وقع ، وأن تثير فيها عواطف لذاعة
من الألم والحسرة ، ومن الحزن واللوعة . وليس غريباً أن
ينطلق لسانه بالشعر في تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك
ما يريد في غير مشقة ولا عناء ، ويصل الى هذه المنزلة التي
لا يصل اليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين أو أن تكون
الظروف قد واتتهم وأتاح لهم من أسباب القدرة والبراعة
ما يقربهم من المطبوعين . وهي أن يبلغوا بالذين يقرأونهم
ويستمعون لهم مثل ما في أنفسهم من الحزن واللوعة ، ومن
الحسرة والأسى ، فاذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . وإذا
جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

هذه منزلة لا أعرف كثيراً من شعراء العربية في العصر
الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا في هذه
الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ، ويحيدون وصف الفقيـد
الراحل وتعيد خلا له وما أثره ، ويتقنون وصف الحزن
عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة في ضرب الأمثال

السائرة وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن
وقعه في القلوب ، وما يلذ الأسماع والعقول معاً ، ولكنهم
لا يشيرون على ذلك كله ما في النفوس من عواطف الحزن
الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما
كان يفعل حافظ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن
عن غير حزن صادق ، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ،
هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن
يساهموا فيه وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون
لهم في الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثي لأنه يحزن ،
وكان يحزن لأنه يحب ، وكان يحب لأن الله قد وهبه نفساً
رضية مؤثرة لم تبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة ، وكما
برئت من الضغينة والحقد .

كان حافظ ينتهي من حب أصدقائه إلى حيث لا يقدر
أن يينه وبينهم فرقاً ، إلى حيث يراهم جزءاً من نفسه ~~وكان~~
حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحب بحسه ويشعر بشعوره ،
فكان إذا رثي علماً من أعلام مصر كأنما يرثي نفسه أولاً ،
وأنما يرثي أمته ثانياً . وقد أتيح لحافظ أن يكون صديقاً
وفياً لهؤلاء الأعلام الذين سعدت مصر بحياتهم وشقيت

بوفاتهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول إن هذه الصداقة
أُتيحت لغير حافظ من الشعراء ، ولكنى حدثتك عن وفاء
حافظ وإيثاره وزهده في متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع
العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق
اللمجة ، وأن يبلغ من نفوس الناس ما لا يبلغه رثاء غيره
من الشعراء المعاصرين .

أراد قدامة في أواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع
للشعر أصولاً ونظماً ، لا يجوز للشعراء أن يتعدوها ويخرجوا
عنها . فلما بلغ الرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من
بعده أن الرثاء والمدح فن واحد في حقيقة الأمر ، وأن الفرق
بينهما أن أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحي ، وأن
مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ إلى الفعل الماضي
فحكى عنه وقال كان كريماً أو كنت كريماً ، ومن ذكر الحيَّ
لجأ إلى الفعل المضارع أو إلى ما في حكمه من أنواع الجمل
فقال هو كريم أو أنت كريم وما يشبه هذا ، ولم يهتد
قدامة وأصحابه في الرثاء إلى أكثر من هذا المقدار ،
أو قل إنهم لم يهتدوا إلى شيء ، فإن العواطف التي تبعث
على الرثاء غير العواطف التي تبعث على المدح قوام تلك

الحزن والياس ، وقوام هذه البهجة والرجاء . وقد يكون
 الاعجاب مشتركاً بين الرثاء والمدح ، ولكن قلما يكون
الاعجاب وحده مصدراً للمدح أو رثاء حتى تصحبه رغبة أو
رهبة ، أو أمل أو حسرة ، أو لوعة أو قنوط . وأكبر الظن أن
 كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودي
 وحافظ في الشعر ويحيون فيه سنة للقدماء لا يزالون يرون
 المدح والرثاء كما كان يراهما قدامة وابن رشيق وغيرهما من
 النقاد المتقدمين تعديداً للمآثر والمفاخر ولوناً من ألوان المدح
 للأموات . وكان حافظ - رحمه الله - في أول عهده بالشعر
 يذهب هذا المذهب ويغلو فيه لأنه كان يقلد القدماء تقليداً
 ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها .
 فأنت اذا قرأت رثاءه لبعض الأباطين في الجزء الأول من
 ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى ، ولم تجد في
 هذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة ، وإنما أحسست
 كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم
 وأراد محاكاتها ، فأخذ معاني القدماء وذهب مذهبهم في الغلو
 السقيم أحياناً وكأنه لم يدفع الى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة
 المحزونة . وإنما دفع اليه بمجاملة أصدقائه من الأباطين ، فانظر

الى هذه الدالية مثلاً ، فسترى أن حافظاً رحمه الله قد كان فيها
عيالاً على دالية أبي العلاء التي مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي
أخذ معنى من معانيها فجعل يطوله ويمد فيه ويقبله على
وجوه عدة ، ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ
منه بعض ما بلغ أبو العلاء قال حافظ :

أيها الثرى إلام التماضي بعدهذا أنت غرثان صادي ؟
أنت تروى من مدمع كل يوم وتغذى من هذه الأجساد !
قد جعلت الأنام زادك في الدهر وقد آذن الورى بالنفاد !
فالتمس بعده المجرة ورداً وتزود من النجوم بزاد !
فانظر الى هذين البيتين الأخيرين فسترى فيهما مبالغة أشبه
بمبالغة الناشئين في الشعر ، لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل
على شيء . وكيف بشاعر يزعم أن التراب قد أكل الناس حتى
كاد يأتى عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها ، وينصح له
أن يلتمس شرابه في المجرة وطعامه في النجوم ؟ وحافظ يمضى
في التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبي العلاء :

خفف الوطأة ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدم العبد هو ان الآباء والأجداد

ولكنك تلح هذا النوع من القصور في أكثر القسم
 الأول من شعر حافظ، لا في الرثاء وحده بل في فنونه الشعرية
 كلها، فحافظ لم ينشأ شاعراً وإنما اكتسب الشعر اكتساباً
 وأنفق حياته كلها في تجويد شعره وتحسينه . على أنه لم تكدر
 تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التي أشرت إليها
 والتي قضت له بالتفوق في الرثاء. فانظر إليه حين رثى الأستاذ الامام
 الشيخ محمد عبده : كيف غلبت طبيعته صناعته؟ وكيف تحدث
 قلبه وإيمانه إلى قلوب المسلمين وإيمانهم؟ وكيف انتقل حزنه
 ووفائه إلى نفوس الناس فعلمهم كيف يحذون لذع الحزن
 وكيف يستعذبون لذة الوفاء؟ وهو على ذلك لم يخل بأصول
 الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر وهو
 متين رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا
 الوهن إلى شعره سيلاً :

+ سلام على الاسلام بعد محمد

سلام على أيامه النضرات

+ على الدين والدنيا ، على العلم والحجى

على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى !
فوا لهقى والقبر بينى وبينه
على نظرة من تلسم النظرات !
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حيال القبر فى عرفات !
لقد جهلوا قدر الأمام فأودعوا
تجاليده فى موحش بفلاة
ولو ضرّحوا بالمسجدين لأنزلوا
بخير بقاع الأرض خير رفات

فى لفظ هذه الآيات من الروعة والرصانة ما عرفناه
فى شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعانى هذه الآيات مألوفة
شائعة ، ليس فيها غرابة ولا ابتكار . ولكن فى الآيات مع
ذلك شيئاً لا أدرى ماهو ! يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى ،
بل أنا أدرى ماهو : هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم
فى نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاده ، نفذ
هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزناً كله .
ثم انظر الى هذا الجزع العظيم ، كيف تصور كأنه طوفان مهلك

يغمر كل شيء ويأتى على كل نفس ، حتى فزع الشاعر منه وقد
ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

✖ تباركت هذا الدين دين محمد

أيترك فى الدنيا بغير حماة !

✖ تباركت هذا عالم الشرق قد قضى

ولانت قناة الدين للغمرات

ثم انظر الى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع
والقنوط المميت :

✖ مددنا الى « الأعلام » بعدك راحنا

فردت الى أعطافنا صفرات

✖ وجالت بنا تبغى سواك عيوننا

فعدن وآثرن العمى شرقات

ولو أنى ذهبت أحلل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت
منها بيتاً واحداً فكلها جيد ، إما لجدة المعنى وإما لرصانة
اللفظ وإما لصدق اللمحة ، وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات .
وانظر الى هذه الأبيات التى وصف فيها حافظ حزن الشرق
على الأستاذ الامام ، وهى الآن أصدق ما يقال فى حزن
الشرق على حافظ نفسه !

- ✧ بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وفاضت عيون الكون بالعبرات
✧ ففى الهند محزون، وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
✧ وفى الشام مفجوع، وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات !

ولست أقف عندما فى هذه القصيدة من وصف للاستاذ
الامام من نواحيه المختلفة ، لا لآنى عجل بل لآنى أكره أن
أظلم غيرى من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ . ولكنى
أحب أن تقرأ معى هذه الآيات التى ختم بها حافظ رثاءه
للأستاذ الامام لتتمثل ما فيها من الحزن الصادق والاعتراف
بالجميل ، وكان حافظ أشد الناس اعترافاً بالجميل وأحرصهم
على شكر من أحسن إليه أو شملته منه يد مهما تكن يسيرة
ضئيلة .

قال حافظ :

- ✧ فيامنزلا فى عين شمس أظلنى
وأرغم حسادى وغمّ عدائى

+ دعائمه التقوى وأساسه الهدى
وفيه الأيادي موضع اللبنيات
+ عليك سلام الله مالك موحشاً

عبوس المغاني، مقفر العرصات ؟
+ لقد كنت مقصود الجوانب أهلاً

تطوف بك الآمال مبتهلات
+ مشابه أرزاق ومهبط حكمة

ومطلع أنوار وكنز عظات

هذه قصيدة خالدة من غير شك وهي لا تستمد خلودها
من قيلت فيه وحده ولا من قالها وحده، وإنما تستمد هذا
الخلود من الرجلين جميعاً. فقد كانت حياة الأستاذ الامام
شيئاً رائعاً، واستطاع حافظ أن يعطي منها صورة رائعة. وما
أكثر ما قال الشعراء في الأستاذ الامام بعد موته! ولكنك
تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الكثير فستجد منه الحسن
الجميل، وستجد منه المتوسط وستجد منه الرديء دون أن
تظفر بمثل هذه القصيدة روعة وجمالاً وصدق لهجة
واستحقاقاً للخلود.

ورثي حافظ أستاذه البارودي فيمن رثاه من الشعراء

فوفق الى جودة اللفظ ورصانته، ووفق الى احياء الأسلوب
القديم في رثاء هو بالمدح أشبه . ولكنّه على ذلك لم يبلغ أن
يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع . ومع أنه لم يكن يريد
× الصدق في أول هذه القصيدة حين يقول :

ردوا عليّ بياني بعد محمود

انى عييت واعيا الشعر مجهودى

ما للبلاغة غضبي لا تطاوعنى

وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

فليس من شك أنه قد صدق وقال الحق فعي واعى
الشعر مجهوده ، وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافى
على ما حاول من تقليد مسلم بن الوليد فى داليته المشهورة :
× « لا تدع بنى الشوق انى غير معمود »

ومصدر ذلك فيما يظهر ان حافظاً تهيب إمام الشعراء
ميتاً كما كان يتهيبه حياً ، واعتقد انه مهما يقل في البارودى فلن
يبلى من رثائه ما يريد ، فقل ذلك من حده وفت في عضده وقصر
به عن غايته . ومصدر ذلك ايضا فيما يظهر ان موت البارودى
لم يكن رزاً شعبياً أو لم يره الناس كذلك فى وقته وانما كان
رزاً للادباء وابرع ما يكون حافظ فى الرثاء حين يصور

حزن الشعب وألمه . لذلك جاد كل الأجادة في رثاء الاستاذ
الامام وفي رثاء مصطفى كامل لأن الاول كان فقده رزءاً في
عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية ولأن الثانى
كان فقده رزءاً في عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ في
رثائهما ناطقاً بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ في تصوير آلام الشعب اكسبت شعره
السياسى ورثاءه لأصحاب السياسة لوناً من الخطابة يمنحه قوة
غريبة تسيطر حقاً على نفوس الجماعات فتفعل فيهما الأعاجيب
انظر الى قوله فى رثا مصطفى كامل :

+ انى ارى وفؤادى ليس يكذبنى
روحاً يحف به الاكبار والعظم

+ ارى جلالا، ارى نوراً، ارى ملكا
ارى محيياً يحيينا ويتسم

+ الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا فى النيل هذا المفرد العلم

+ غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

✕ وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه

فنحن في موقف يحلو به القسم

✕ لييك نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

✕ جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا

ونستعد ونستعدى ونحتكم

ألا ترى الى هذه الأبيات ، كيف استحضر الشاعر فيها
شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة ، وكيف مهد لهذا
الاستحضار بهذا البيت الأول الذى خرج فيه عن طوره
العادى وأخرج الناس معه عن أطوارهم ، وهياهم لموقف غير
مألوف ثم أخذ يدفعهم الى هذا الموقف دفعا ويملاً قلوبهم
هيبه وإجلالا بهذا البيت الذى ألفه من جمل منقطعة قصيرة
وختمه بصورة خلافة رائعة :

أرى جلالا أرى نوراً أرى ملكا

أرى حياً يحينا ويتسم

ثم انظر اليه كيف استأثر به الدهول وغلبه على نفسه
وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه

هذا فتي النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر اليه بعد ذلك وقد أكد الجمهور وأنساه نفسه
وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف
يتحدث الى هذا الجمهور بهذا الحديث الذي تملؤه المهابة والروعة
والحب معاً فيقول:

غضوا العيون وحيوه تحيته

من القلوب اذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك الى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها ايمان
وطاعة ويقين واعجاب .

ليك نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لوقرأها ارستطاليس صاحب الخطابة
ومنشىء علم البيان لما تردد في أن يتخذها مثلاً لما يسميه في
الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشيء تحت العين .

ورثي حافظ قاسماً فلم يكن في رثائه اياه شعبياً ولا شاعر
جمهور بالمعنى الذي نراه في رثائه للاستاذ الامام والمصطفى
كامل ، وانما كان انساناً حساساً قوى الحس محزوناً صادق الحزن

ومصرياً مشفقاً على مصر من هذه الأحداث التي تلم بها سراً
فتنتزع أعلامها انتزاعاً ، انظر الى قوله :

x مالى أرى الأجداث حالية

وأرى ربوع النيل فى عطل

فاذا الكنانة أطلعت رجلاً

طاح القضاء بذلك الرجل

أو كلما أرسلت مرثية

من أدمعى فى إثر مرتحل

هاجت بى الأخرى دفين أسى

فوصلت بين مدامع المقل

وان خاتنى فيما فجعت به

شعرى فهذا الدمع يشفع لى

وانظر الى هذه الأبيات والى ما أدرك الشاعر فيها من

المعنى الخصب الكثير فى اللفظ العذب القليل :

قد كنت أشقانا بنا وكذا

يشقى الأبى بصحبة الوكل

لهفى عليك قضيت مرتجلاً

لم تشك ، لم تستوص ، لم تنل

فقد في ذلك
المرثية

+ غالى القضاء يد القضاء فـذا

يبكى عليك ، وذاك فى جـدل

وقد عرض حافظ فى هذه القصيدة لرأى قاسم فى السفور
والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان
فى ذلك مصورا (سواء أراد أو لم يرد) لموقف كثير من
المستنيرين فى ذلك العصر كانوا يرون رأى قاسم ، ولكنهم
يشفقون من الجهر به ويرجئون الأمر الى الأيام تقضى فيه
بالحق . فانظر الى حافظ كيف يقول :

+ ان ريت رأيا فى الحجاب ولم

تعصم فتلك مراتب الرسل

الحكم للأيام مرجعه

فيما رأيت فتم ولا تسـل

وكذا طهارة الرأى تتركه

للدهر ينضجه على مهـل

فاذا أصبت فأنت خير قى

وضع الدواء مواضع العلـل

أولا فحسبك ماشرقت به

وتركت فى دنياك من عمل

ثم أثار موت قاسم في نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين
 ذهبوا من أعلام مصر وقادة الرأي فيها ، ومن الذين كان
 يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه وكانوا يسعدون ببقائه
 وحديثه الحلو وأدبه العذب فقال هذه الآيات التي تفيض
 حزناً وأسى ، وتملاً نفوسنا حزناً وأسى كلما قرأناها . وأينما لا
 يجد نفسه في هذه المنزلة التي وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم
 فذكر حافظ به موت الذين سبقوه ولقد مات أصدقاء لحافظ
 بعد قاسم فذكر بهم قاسماً ومات حافظ الآن حزناً لموته ، ونحن
 نذكر به موت أصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله أن
يجعل قلوب الأحياء قبوراً لأصدقائهم الذين يسبقونهم إلى الموت ،
 ومن خير ما في هذه الآيات يأس حافظ مما انتهت إليه الحياة بعد
 أصدقائه هؤلاء . ومما انتهت إليه مصر من فساد الحال واعوجاج
 الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون ، والغريب أن ما
 قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نرده الآن بعد موت
 الذين ماتوا من زعماء مصر وقادتها ، فليس مصر بالبلد الذي
 يمكن أن يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

✱ إذا مات متاً سيد قام سيد

قؤول لما قال الكرام فحول

وانما يمضى الزعيم او المصلح فيخلو مكانه ويظل خالياً
وينساه الناس ولا يذكره منهم الا الأقلون .

قال حافظ :

واها على دار مررت بها +
أرخصت فيها كل غالية
ساءلتها عن قاسم فأبت
متعثرا ينتابني وهن
متذكرا يوم الامام به
يوم احتسبت وكنت ذا أمل
جاور أحبتك الآلى ذهبوا
واذكر لهم حاج البلاد الى
قل للامام اذا التقيت به
إن الحقيقة أصبحت هدفا
لله آثار لكم خلدت
لله أيام لكم درجت
نعم الظلال لو انها بقيت
أترانا نحمل حافظاً رحمه الله شيئاً غير هذا لو أردناه على
أن يصور لأصحابه الأكرمين حال مصر بعد أن تركوها !

ألسنا نحمله مثل هذا الى الاستاذ الامام والى قاسم ومصطفى كامل والى سعد و ثروت ؟ بلى ، لقد قلت لك انى لا أرى ان الذين سيرثون حافظا من الكتاب والشعراء سيبلغون من رثائه ما كان يبلغ هو من رثاء الذين رثاهم من زعماء مصر وأئمتها .
على أن لحافظ رثاء تقليدياً أو قل رثاء أضطر اليه اضطراراً للجمالة ، أو لأن مكانته كانت تضطره اليه . ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر قبل أن ينضج فنه كهذا الرثاء الذى قاله فى بعض الأباظين والذى أشرت اليه منذ حين ، وكقصيده التى يعزى بها الانجليز عن فقدهم لملكهم فيكتوريا ، ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له أداة الشعر فأجاد اللفظ ووفق الى معان حسان ، منها المبتكر ومنها المستعار ، ولكنه على كل حال لم يستطع ان يمس القلوب وان استطاع ان يشير الى اعجاب ، وربما كان رثاؤه لرياض باشا أصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذى بكى فيه الشاعر بلسانه وعقله ولم يبك فيه بقلبه ولا وجدانه .

ولحافظ فى رثائه بل فى شعره كله صور يقلد فيها القدماء ولكنه لم يحققها ولم يحصها ، ولم يكن حافظ يحفل بمثل هذا التحقيق والتحصيص لأنه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى

نفس السامع والقارىء، وكان يعتقد ولعله كان مصيباً أن كثيراً من قرائه وسامعيه كانوا مثله لا يعينهم التحقيق ولا التمهيص، ولا يكلفون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال، فحافظ يجرى الدموع أنهاراً ويخيل الى نفسه والى الناس ان هذه الدموع الجارية تستطيع ان تحمل الفقيد الى قبره. وحافظ يؤجج الأنفاس ناراً ويخيل الى نفسه والى الناس أن هذه النار تستطيع ان تحرق المشيعين لولا ما يقاومها مع الدموع. وحافظ كما رأيت يكلف تراب الأرض أن يشرب من المجرعة وياً كل من النجوم. وحافظ يطلب الى قبر مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وأن يلقي ضيفه جاثياً. وقد سألته رحمه الله ذات يوم كيف تتصور القبر جاثياً؟ فقال دعنى من نقدك وتحليلك، ولكن حدثنى أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك؟ أليس يشير فى نفسك الحزن؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال؟ قلت بلى ولكن.. قال دعنى من لكن واكتف مثلى بهذا.

رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يشور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب، وانما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر؛ فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطلع الخيال ويضطر الى المحال،

ولسكنه رغم هذا كله لم يكن يفسد الحقائق، ولا يعبت بها،
وانما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث في رثائه وشعره السياسي،
كما كان مصوراً متقناً للنفوس،

رحم الله حافظاً! ان فصلاً قصيراً كهذا الفصل لا يسع
رثاءه ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغي أن يكون النقد
والتحليل. واني لأرجو أن نبليغ من ذلك ما نريد في الكتاب
الذي سيهياً الآن لدرس شاعر النيل.



حافظ وشوقي

(١)

في أقل من ثلاثة أشهر فقدت مصر لسانها الناطقين ،
وفقد الشرق العربي شاعريه العظيمين حافظاً وشوقي ، وكأنما
أراد القضاء أن يمهل أمير الشعراء شهرين وبعض شهر ليرثي
حافظاً وينصفه بعد موته كما مدحه حافظ وأثنى عليه ، وأعلن
إمارته للشعر في حياته !

فلما قضى شوقي من ذلك حق الوفاء والانصاف والعدل
ألحقه الله بصاحبه في حيث لا تنافس ولا تفاخر . وفي حيث
لا غل ولا حقد ولا موجدة . وقد كان شوقي يرجو - كما
قال - أن يرثيه حافظ ، ولو قد تأخر حافظ عن شوقي لقال
إنه كان يرجو أن يكون السابق وأن يرثيه شوقي . وأمر الله
نافذ وكلمة الله هي العليا ، فقد أراد أن يموت حافظ وأن
يتبعه شوقي بعد شهرين وبعض شهر ، وأن يفقد الأدب العربي
الحديث علميه ولسانيه وشاعريه ، وأن ترزأ مصر في ابنها
العزیزین دون أن تجد في أحدهما خلفاً من فقد صاحبه .
واست أكتب هذا الفصل لأصف حزن مصر أو حزن

الشرق العربى على الشعاعين ، ولا لأصور هذه اللوعة التى
ملأت عليهما قلوب الأصدقاء والأحبة . فقد عرف الناس
ذلك حق معرفته وقد كثر الكلام فيه ، وما أظن أن الناس
سيفرغون منه قبل زمن طويل . انما أريد فى هذا الفصل ان
أكون مؤرخاً للشعر المصرى الحديث ، وأن أكون منصفاً
فى هذا التاريخ ما وسعنى الانصاف ومدت لى أسبابه وهيئت
لى وسائله ، ولعل أول الانصاف أن أعترف بأنى قد عرفت
الشاعرين وكان بينى وبينهما ما يكون بين الناس من قرب
وبعد ، ومن مودة وإعراض . وأنى لم أكّد أشيع كلا من
الرجلين الى حيث أراد الله له أن يكون ، حتى أخذت نفسى
بأن أنسى ما كان بين شخصيهما وبينى من هذه الخصومات
الباطلة التى تعرض للناس فى الحياة ، والا أستبقى منهما الا
الخير الذى يدعو الى الحب ويشير فى النفس عاطفة الحزن
والآلم ويطلق اللسان والقلب بهذا الدعاء الخالص الصادق
البرى ، الذى نسميه الاستغفار .

فرحم الله هذين الراحلين الكريمين ! كلمة أطلقها خالصة
قد ملأها البر والحب والوفاء . ولكن حافظاً وشوقى ليسا
شخصين فحسب ، وانما هما شاعران كانا فى حياتهما ملكا

خالصاً للنقد، وهما بعد موتهما ملك خالص للتاريخ. وقد قال
النقد فيهما حيَّين ما استطاع أن يقول، فعرفا وأنكرا ورضيا
وسخطا. ولعل النقد لم يستطع أن يبرأ من تأثير رضاها
وسخطها، ولعل النقد أن يكون قد حرص على أن يغيظهما
فأسرف في الطعن، أو على أن يرضيهما فغلا في الشناء. ولعلهما
أن يكونا قد رضا عن ثناء المادح فتلطفا له حتى أغرياه بالغلو
في المدح، أو سخطاً على نقد الناقد فتنكرا له حتى أغرياه
بالإفراط في اللوم، والإغراق في التجريح. وكذلك يعجز
الأحياء عن أن ينصف بعضهم بعضاً لأن شهوات الرضى
والسخط وعواطف الحب والبغض وأهواء التعصب والتحزب
تفسد عليهم أعمالهم فتدفعهم راضين أو كارهين إلى الغلو
حيناً وإلى التقصير حيناً آخر. وإذا لم يستطع الأحياء أن
يظفروا من شركائهم في الحياة بالانصاف والعدل، فخليق
بالموتى أن يظفروا بهذا العدل وذلك الانصاف، لأن الموت
ينبغي أن يجب ما قبله، وأن يمحو ما في الصدور من غل وما
في النفوس من موجدة، وما يتعلق به بعض الناس على بعض
من أسباب الخصومة والمنافسة والكيده.

وأنا أريد أن أعترف أيضاً بأننى كنت أوتر حافظاً على

شوقى فى حياتهما ، وكنت أختص شاعر النيل من المودة
والحب بما لم أختص به أمير الشعراء . لأن روح حافظ
وافق روحى ، ولأن كثيراً من أخلاق حافظ وافق أخلاقى ،
ولكنى على ذلك أريد (وأستعين الله على ما أريد) أريد أن
أنسى الآن حى لحافظ وإشارى إياه بالمودة الصادقة والحب
الخالص ، وأن أجعل الرجلين سواء أمام النقد الأدبى الذى
أريد أن أعرض له فى هذا الفصل . وأنا أعلم أن من العسير
جداً أن يخلص المؤرخ ومؤرخ الأدب بنوع خاص من
عواطفه وشهواته ، ومن ميوله وأهوائه ، ومن ذوقه فى الأدب
والفن . فهو خليق أن يخضع لهذا كله قليلاً أو كثيراً حين
يدرس الشعراء والكتاب ، أو يوازن بينهم أو يحكم عليهم .
أعلم أن هذا عسير ولكنى أعلم أنى سأجد فيه ما استطعت .
وأعلم بعد ذلك أنى إنما ذكرت عواطفى التى كانت تعطفنى
على حافظ بالحب والمودة ، وتصرفنى عن شوقى بعض الشيء
لتم أنت ما قد أعجز عنه أنا من الانصاف ، ولتمحو أنت ما قد
أتورط فيه أنا من الغلو والاغراق .

وأنا أشد الناس رثاء للكتاب والشعراء والأدباء وأصحاب
الفن الجميل عامة ، فحظوظهم سيئة فى حياتهم من غير شك ،

وقلما ينصفهم التاريخ بعد الموت ، هم يثيرون في نفوس الأحياء
ضروباً من الحقد وألواناً من الضغينة . هذا ينفس عليهم
لأنه لم يوفق الى حظهم من الاجادة ، ولم يظفر بمثل ما ظفروا
به من إعجاب الناس ، وكان خليقاً أو كان يرى نفسه خليقاً
بالاجادة والاعجاب . وهذا يتنكر لهم لأن الحسد قد ركب
في طبعه ، ولأن غريزته قد فطرت على الشر وحب الأذى .
وهذا يتنقصهم لأنه لم يفهمهم أو لم يذقهم ، ولأن فنهم لم
يقع من قلبه موقع الرضى ، ولم ينزل من نفسه منزلة الموافقة ،
وهم يحتملون ذلك ويتعرضون له ويعلمون أنفسهم بأن المرء
لن يكفر بحقه من الانصاف والعدل ما عاش . ولكن
التاريخ قائم ينصف المظلوم ويقضى في أمره بالعدل والقسط ،
يعلمون أنفسهم بهذا ويتعززون به عما يلقون في حياتهم من
الأذى ، وما يحتملون فيها من الألم . وهذا خير لأنه يعصمهم
من اليأس ، ويحميهم من القنوط ويذود عنهم عوادي الضعف
والفشل . ولكن التاريخ ليس أشد إنصافاً ولا أدنى الى العدل
من آراء الأحياء المعاصرين ، لأن الناس دائماً طوع شهواتهم
وعبيد أهوائهم . وهم متأثرون بهذه المؤثرات المختلفة التي
تضطرهم الى ظلم الأحياء ولا تعفيهم من ظلم الموتى . ولقد

وجدت شيئاً غير قليل من الألم اللاذع والحزن المضنى حين
قرأت فصلاً لأناتول فرانس يصور هذا اللون القاتم من
يأس الأديب .

كتب أناتول فرانس هذا الفصل حين استقبال الشاعر
الفرنسى المعروف لكونت دى ليل فى المجمع اللغوى الفرنسى .
وكان هذا الشاعر قد دخل هذا المجمع معيناً لا منتخباً ، كما هى
العادة ، أو قل إن كنت تريد التحقيق دخله بوصية من .
فكتور هوجو ، أوصى له بكرسيه فى المجمع قبل أن يموت ،
ولم يستطع المجمع أن ينكر وصية الشاعر العظيم فأنفذها ،
وقبل لكونت دى ليل بين أعضائه مع أنه كان قد رفضه قبل
ذلك باجماع لم يشذ عنه الا فيكتور هوجو نفسه ، وأن موعد
استقبال العضو الجديد فى المجمع ، فكتب أناتول فرانس قبل
هذا الاستقبال بأسبوع فصلاً لاذعاً فى جريدة الطان - تجده
فى الجزء الأول من الحياة الأدبية - سخر فيه من الشاعر
سخرية مرة مضحكة ، وتنبأ بما سيقوله فى خطبته . وأنت قد
تعرف أسلوب أناتول فرانس ومذهبه فى السخرية والاستهزاء ،
فلما كان يوم الاستقبال نهض الكسندر دوماس الصغير - كما
يقولون - لاستقباله ، فلم يكن أقل من أناتول فرانس سخرية

ولا استهزاء . كان لكونت دى ليل متشائماً ينكر الحياة ويؤثر
الفناء ، فاسمع لخطيب المجمع اللغوى وهو يستقبله ويرحب به ،
كيف يسأله : اذا كنت تكره الحياة فما بقاؤك فيها ؟ ! واذا
كنت تؤثر الفناء فما أحجامك عنه وامتناعك عليه ؟ !

وتكلم المستقبل وتكلم العضو الجديد عن فيكتور هو جو
فأما العضو الجديد فزعم أن الأجيال المقبلة ستعجب بآثار
فيكتور هو جو كلها ، وأما المستقبل فزعم أن الأجيال ستقضى
فى هذه الآثار قضاءً قاسياً فتقبل منها وترفض . فلما انصرف
أنا تول فرانس من هذه الجلسة كتب هذا الفصل المحزن الذى
أشرت اليه آنفاً والذى أنكر فيه أن تكون الأجيال المقبلة أحق
بالانصاف وأقدر عليه من الأجيال المعاصرة . وانتهى الى
أن فيكتور هو جو كان صاحب فن فى الألفاظ قليل الحظ
من التفكير فلسفته سخف ، وأنبأنا بأن الذين أعجبوا بفكتور
هو جو حياً قد أخذت تخيب آمالهم فيه بعد أن مات . وتنبأ
بأن الأجيال المقبلة لن تستبقى من شعر فيكتور هو جو الا
شيئاً قليلاً .

كذلك كان يتحدث أنا تول فرانس وأمثاله عن فيكتور
هو جو ولما يمض على موته أكثر من عامين ، أرأيت حظ الأدباء ؟

يتعرضون لسخط الأحياء ويصلون نار النقد ما عاشوا. فأذاماتوا
فاما أن يتعرضوا للنسيان واما أن يتعرضوا للظلم والجور. وقليل
منهم من ينصفه التاريخ فيعرف له مكانته وحقه من الإعجاب.
ما أجدر الذين ينقدون الأدباء ويؤرخونهم بعد الموت
أن يكونوا رحماء لولا أن العلم لا يعرف الرحمة، وهو يخشى
على نفسه الفساد إن طمع فيها أو اطمأن إليها.
ليس للاديب أمل في الانصاف فليتخير بين حياة: خيرها
شر وحلوها مر، وبين الاعراض عن الأدب والانصراف
عنه الى غيره من فنون الحياة. ٨

(٢)

ظهر الشعر العربي حين عرفه التاريخ في نجد، لا يكاد
يتجاوزه إلى الحجاز أو إلى العراق الا قليلا، حين يرتحل الشعراء
غربا إلى الأسواق والحج أو شرقا إلى أمراء الحيرة، وربما
زار شعراء نجد أمراء غسان في أطراف الشام مما يلي جزيرة
العرب، فلما ظهر الاسلام وانبسط سلطانه على الأرض ظلت
دوحة الشعر في نجد، ومدت ظلها إلى العراق شرقاً، وإلى
الحجاز غرباً. ولكنها لم تمتد هذا الظل إلى الشام ولا إلى
مصر، ولم تتجاوز به العراق إلى فارس وما يليها من بلاد

الشرق . وإنما كان شعراء نجد والعراق والحجاز يقدون الى الشام وفوداً يمدحون الخلفاء ويأخذون جوائزهم ، وربما وفدوا الى مصر يمدحون أمراءها ، وربما دفعت الأحداث ببعضهم الى خراسان . ولكن الشعر العربي لم يستوطن شرقي الدولة الاسلامية ولا غربيها ، ولم يتجاوز الجزيرة العربية إلا الى العراق الذي كان يعد جزءاً منها أو كالجزم . فلما أديب لبني العباس من بني أمية نشأ في العراق شعر ، لم يثبت له شعر نجد ولا شعر الحجاز . فاستأثر العراق بالشعر طوال القرن الثاني ، وظلت بلاد الشام ومصر كما كانت يزورها الشعر ولا يستقر فيها . ثم ظهر في الشام شعر شامي مثله أبو تمام وأخذ الشام منه ذلك الوقت بحظه من الزعامة في الشعر . وكان القرن الرابع وكانت دولة الحمدانيين ، وكان سيف الدولة فاستأثر الشام بما كان العراق قد استأثر به في القرن الثاني ، وبما كان موزعاً بين العراق ونجد والحجاز في القرن الأول ، وبما كان نجد قد استأثر به قبل ظهور الاسلام . وظلت مصر طوال هذه القرون ضعيفة الحظ من الشعر ، ضعيفة الحظ من الأدب كله ، يقد أهلها الى الحجاز أو العراق أو الشام فيصيرون من ذلك حظاً ، وقد ينتقل اليهم نفر من أدباء

الحجاز أو العراق أو الشام فيلبون إماماً ، أو يطيلون المقام .
ولكن لم يكد يضعف أمر العباسيين في العراق والشام ، ولم
تكند تظهر القوة السياسية لمصر أيام الفاطميين حتى أخذ كل
شيء يدل على أن القاهرة تنهياً في القرون الوسطى لما تنهيات
له الاسكندرية في العصر القديم ، تنهياً لا يواء الحضارة
الاسلامية بما فيها من علم وأدب وفن وفلسفة ودين ، كما تنهيات
الاسكندرية لحماية الحضارة اليونانية ، تنهياً لتكون قبلة الشرق
الاسلامى ، كما تنهيات الاسكندرية لتكون قبلة الشرق الوثني
والمسيحي ، وتم لها ذلك لسوء حظ الاسلام والأدب العربى .
كانت العجمة والجهل يدفعان الأدب العربى من الشرق الى
مصر ، وكانت المسيحية والجهل يدفعانه من الغرب الى مصر .
وكانت مصر ثابتة باسمه تستقبل ما يأتيها من الشرق وتستقبل
ما يأتيها من الغرب فتؤويه وتحميه وتحوطه ، وتتيح له أن
يحيا ويشمر . وكذلك ظلت مصر رافعة لواء الحياة الاسلامية
والأدب العربى تظل به العلماء والأدباء ، حتى كان سلطان
الترك العثمانيين واغارته على كل شيء ، وافساده لكل شيء ،
وقضاؤه على حضارتين في أقل من قرن : على الحضارة
الاسلامية في مصر ، وعلى الحضارة البيزنطية في قسطنطينية .

فأما الحضارة البيزنطية فقد هربت جذوتها من الترك الى
إيطاليا حيث أشعلت أوربا كلها فأحيتها ، وأما الحضارة
الإسلامية فلم تمنع في الحرب ولم تعبر البحر ولكنها اختبأت
في الأزهر إلى أن يأذن الله لها أن تخرج منه ، فتشعل الشرق
وترد إليه الحياة .

وكذلك ظل في مصر شعر وأدب كما ظل في مصر علم
وفلسفة . وأنا أعلم أن الشعر المصري طوال هذه القرون
لا يستطيع أن يثبت لشعر نجد والحجاز والعراق والشام ،
ولكنه على كل حال شعر كان يقال ويتأرجع عبيره ، ويرف
نسيمه فيحي النفوس والقلوب في عصر ماتت فيه النفوس
والقلوب أو كادت تموت . وأنا أعلم أن الشعر المصري في
ذلك الوقت كان ضئيلاً نحيفاً خفيف النفس ، لا يكاد يسمع
صوته ، ولكنه على كل حال كان شعراً حياً يمثل أمة حية ،
ويعطف على شعوب بأئسة . لجأت آلهة الشعر الى مصر
فاستظلت بظلمها واطمأنت الى هذا النسيم العليل الذي كان
ينبعث من ضفاف النيل فيحفظ عليها ما كان قد بقي فيها من
رمق . وأراد الله أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية الى
التخلص من سلطان الترك قليلاً أو كثيراً . وأراد الله أيضاً

أن تكون مصر أسبق البلاد الشرقية الى تنظيم العلاقات بينها وبين أوروبا . وكان من ذلك أن سبقت مصر غيرها من البلاد الشرقية الى النهضة الأدبية . وكان من ذلك أن خرجت تلك الجذوة التي كانت مختبئة في الأزهر فلقيت بونابرت وأصحابه . ولم تلبث أن تبعتهم الى أوروبا ، فأقامت ما شاء الله أن تقيم ثم عادت قوية ملتبة . ولم تعد وحدها بل عشقها كثير من الأوربيين فتبعوها واستقروا معها في مصر يحيونها وتحبهم ، يبعثون فيها القوة والنشاط وتفتح لهم أبواباً من العلم والفن لم تكن لتفتح عليهم لولا أن اتصلوا بها واتصلت بهم . وكذلك ظلت القاهرة في العصر الحديث كما كانت في القرون الوسطى ملجأ الحضارة الإسلامية ، وميدان الالتقاء والاتصال بينها وبين الحضارة الأوروبية . ويجيء عصر اسماعيل فاذا تياران مختلفان يتنازعان مصر ، أحدهما يأتي من أوروبا في كتب العلم والأدب التي يحملها الوافدون وينقلها المبعوثون فلا تلبث أن تدرس وتترجم ، والآخر يأتي من القاهرة نفسها ، يأتي من المساجد والأضرحة ودور الأعيان والأغنياء ، يخرج من مستقره مجلدات نحيفة أو ضخمة قد علاها الغبار وعبث بها البلي . ولكنه لا يكاد يصل الى بولاق او الى

غيرها من أحياء القاهرة حيث استقرت المطابع حتى يستحيل ،
 فإذا هو سيل غزير قوى عنيف فيه كثير من الصفو وفيه
 قليل من الكدر . ويلتقي التياران في عقول الشباب المصرى ،
 فى الأزهر حيناً وفى المدارس المدنية حيناً آخر فينتج من
 التقائهما هذا الجيل الأدبى الجديد الذى ظهر على رأسه
 البارودى والذى نشأ فى حجره شوقى وحافظ فى الثلث
 الأخير من القرن الماضى .

(٣)

م وقد تقارب مولد الشاعرين ، ولد أحدهما (شوقى)
 سنة ١٨٦٨ وولد الآخر (حافظ) سنة ١٨٧١ تقارب مولدهما
 فى الزمان ولكن نشأتهما اختلفت اشد الاختلاف . ولد
 أحدهما باب اسماعيل حيث البأس والعزة ، وحيث الغنى
والثروة ، وحيث الترف والنعيم ، وحيث هذه العناصر
الكثيرة المتباينة التى تبعث الحياة فى ناحية من أنحاء النفس ،
وتبعث الموت منها فى ناحية أخرى ، وحيث هذا الاعتزاز
بالنفس والازدراء للشعب ، وحيث هذه الأثرة التى تخيل
الى صاحبها أن كل شىء مسخر له وأنه هو لم يسخر الا
ليستأثر بنعيم العيش .

✓ وولد الآخر في ناحية مظلمة متواضعة من نواحي مصر،
في أسرة مصرية لا حظ لها من غنى ولا ثروة، لا نصيب لها
من بأس ولا سلطان. أسرة من هذه الأسر التي تمتلئ بها
مدن مصر وقراها والتي تعودت منذ أيام المماليك أو قبل
أيام المماليك أن تشقى ليسعد غيرها، وأن تعمل ليكسل غيرها
وأن تتألم في صمت وتحتمل المكروه في صبر واذعان. ولكن
أمر هذه الأسر كان قد أخذ يتغير في هذا الوقت، فأتيح
لهذه الظلمة التي كانت تغمرها وتحيط بها أن تنقشع عنها
بعض الشيء، وأتيح لهذا الشعور الذي كان مفلولا أن يجد
شيئاً من الحدة، وأتيح لهذا العقل الذي كان مغلولاً أن ينطلق
من عقالة بعض الشيء.

نشأ شاعرنا الأول في بيئته تلك فذهب الى الكتاب ثم
الى المدرسة، ونشأ شاعرنا الآخر في بيئته هذه فذهب الى
الكتاب ثم الى المدرسة. كانا جميعاً يلقيان الفقيه في الكتاب
والمعلم في المدرسة ولكن كلاهما كان يعود إلى بيئته الخاصة.
فأما شوقي فقد كان يجد من بيئته الأريستقراطية ما يضعف في
نفسه أثر الكتاب والمدرسة، وأما حافظ فقد كان يجد من
الفقيه والمعلم صدى لحياة أسرته الخاصة. ومن هنا كانت نفس

شوقى أرسقراطىة رعم دىموقراطىة الكتاب والمدرسة ،
وكانت نفس حافظ دىموقراطىة خالصة .

وجهت الظروف حافظاً نحو الحرب ، ووجهت السياسة
شوقى نحو القصر . والتقى الشاعران آخر القرن الماضى فى
ميدان واحد هو ميدان الشعر . وكان أحدهما قد تعلم ولكن
فى عزة ونعم ، وارتحل ولكن الى حيث اللهو واللذة والى
حيث العلم والأدب والفن ، وإلى حيث الطبيعة المبتسمة
والجمال المضى . وكان الآخر قد تعلم ولكن فى فقر وبؤس ،
وارتحل ولكن إلى حيث الكد الذى لا يفيد ، والعناء الذى
لا يغنى ، إلى حيث الشمس المشرقة أبداً ، المحرقة أبداً ، إلى حيث
الطبيعة المظلمة ، الى حيث الجمال الجافى الغليظ - ان صح أن
يكون الجمال جافياً غليظاً - إلى حيث الجهل الذى لا غور له
والظلمة التى لا يتميز فيها شىء . مضى كل من الشاعرين فى
طريقه . هذا مبتسم سعيد يتغنى ، وهذا مكتئب محزون يشكو .
ثم عاد كل من الشاعرين الى القاهرة ، فأما أحدهما فالى حيث
كان ينتظره المنصب واللقب والثروة والترف وفراغ البال .
وأما الآخر فالى حيث كانت تنتظره البطالة والشوارع
والقهوات المنحطة والفقر والشظف وسوء الحال ، وهذا الهم

الثقيل الكالح الذى يضاجع الفقير اذا أوى إلى سريره ، ويكشر له عن أنيابه إذا أراد أن ينظر إلى وجه الصبح . ثم يجالسه على مائدته المتواضعة ، ويعينه على أن يلبس ثيابه الرثة ، ويرافقه حيث ذهب ويرافقه حيث جاء ، ويبعث فى صوته - مهما يكن حلواً عذباً - رنة حزينة مظلمة ، ويلقى على نفسه - مهما تكن صافية - غشاءً مظلماً مفسداً لصور الأشياء والناس جميعاً .

نعم عاد الشاعر ان الى القاهرة فى هذه الحال ، واستقبل كل منهما أهل القاهرة بما أمكن أن تتغنى به نفسه من الشعر ، وسمع أهل القاهرة غناء حافظ وغناء شوقى فأعجبوا بشوقى وأحبوا حافظاً . وكذلك انتقل إعجاب القاهرة بشوقى الى أهل مصر ثم الى أهل الشرق العربى ، وانتقل حب القاهرة لحافظ الى أهل مصر ثم الى أهل الشرق العربى ، ثم مات حافظ فحزنت عليه مصر والشرق حزن المحب ، ومات شوقى فحزنت عليه مصر والشرق حزن المعجب .

(٤)

كنت مرة عائداً مع الاستاذ لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقى ، وكنا نتحدث فى أمر الشعارين فقال لطفى بك : « لقد خدعنى

حافظ عن نفسه كما خدعني شوقي عنها ! كنت ألقى حافظاً
أول عهده بالشعر وكان يسمعي كثيراً من شعره فلا يعجبني ،
فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله
لتكون شاعراً ! ولكنه لم يقبل نصحي وحسناً فعل ، فما زال
يجد ويكدح حتى أرغم الشعر على أن يدعن له وأصبح شاعراً
و كنت شديد الإعجاب بشعر شوقي أقرؤه في لذة تكاد تشبه
الفتنة وأثني عليه كلها لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر في
تعهد شعره حتى ساء ظني بشعره الأخير ! » .

كذلك كان يتحدث إلى الأستاذ لطفى السيد في حافظ
وشوقي . وكذلك يتحدث إلى ديوان حافظ وديوان شوقي .
لا أكاد أبدأ الجزء الأول من ديوان حافظ حتى أجد تلميذاً
ضعيفاً شديد الضعف ، مضطرباً عظيم الاضطراب ، مقلداً
مسرفاً في التقليد . ولا أكاد أقرأ الديوان القديم لشوقي حتى
أجد طبيعة خصبة ، وقلباً فطر على الذكاء ، وخيالاً حراً أريد
له أن يكون مطابقاً فأبت له البيئة والظروف الا أن يكون
مقيداً مغلولاً . ومن الغريب أنك تقرأ الديوانين فترى حافظاً يقلد
ويشعر بأنه مقلد ، ويلتمس الاجادة في هذا التقليد نفسه ، ولا
يتخرج من اعلان ذلك الى الناس ، بل لا يتخرج من التمدح به .

وتقرأ ديوان شوقي فترى شوقي يبتكر أو يحاول أن
يبتكر، وهو يشعر بذلك ويعلنه إلى الناس ويتمدح به، ولكنك
تجد في هذا نفسه عنصر الفساد الذي سيقص من جناح شوقي
ويضطره إلى أن يكون أشبه بالطيور الداجنة منه بالطيور التي
تسبح في الهواء ما اتسع لها الجو . تقرأ مقدمة ديوان حافظ
فاذا هي تحصر المثل الأعلى في محاكاة الشعراء المتقدمين من
شعراء العصر الأموي والعباسي ، وتقرأ مقدمة شوقي فاذا هو
يلم بالشعراء المتقدمين إماماً ويعجب بهم إعجاباً لا يخلو من
التحفظ ولا يبرأ من التردد ، ويعان إعجاباً عريضاً بالأدب
الأوربي وينبئنا بأنه مجدد لا يقلد إلا كارها ، ولكنه ينبئنا
في الوقت نفسه بأنه قد وضع لنفسه في حياته الأدبية قاعدة
ذكرها ثراً في هذه المقدمة وذكرها شعراً في الديوان حيث
يقول :

ان الأراقم لا يطاق لقاءها

وتنال من خلف بأطراف اليد

فهو لا يستقبل التجديد ولكن يستدبره . وهو لا يدخل
البيوت من أبوابها ولكن يأتيها من ظهورها . وهو لا يجدد
في صراحة وشجاعة وثبات للخصوم ، ولكنه يجدد في لباقة

ومداورة والتواء على المناهضين . وكأن هذه القاعدة قد صيغت
من طبع شوقى فسيطرت على حياته الأدبية وسيطرت على
حياته الشخصية أيضاً . فهو لم يواجه الناس بتجديد عنيف في
الأدب قط ، وهو لم ينهض لخصومة ناقد من نقاده ، بل لم
يجرؤ على أن يلقي نقاده بالعتب ، وإنما كان يعاملهم معاملة
الأراقم لا يلقاهم ولكنه يأخذهم من خلف بأطراف اليد .
يغري بهم ويؤلب عليهم ثم يلقاهم باسماء وادعاء ، ولا يتخرج
من زيارتهم واستزارتهم كأنتهم من أحب الناس إليه ، ولم
يكن في حياته اليومية عدو ظاهر إنما الناس جميعاً أصدقاءه
وخلصاؤه ، يظهر لهم صفحة واضحة نقية ، ومن وراء هذه
الصفحة صفحات بيض وصفحات سود . تلقاه في الجهاد ،
وتلقاه في الاتحاد ، وتراه في السياسة ، وتراه في الأهرام ، وتراه
في بار اللواء وتراه في « البعكوكة » هادئاً دائماً لا يضطرب
منخفض الصوت قلماً تسمعه دون إصغاء إليه .

كانت هذه القاعدة صورة لطبيعته ، وأى غرابة في هذا !
لقد ولد بباب القصر ، ونشأ في ظل القصر ، وقضى شبابه وكهولته
عاملاً في القصر ، وفي القصر . حين كان سلطان القصر مطلقاً
أو كالمطلق ، ثم حين كانت حياة القصر مداورة مستمرة بين

الشعب الطامع في الحرية والانجليز المعتدين عليها ، فليس غريباً
أن يكسب شوقي في حياته الأدبية والشخصية هذه السياسة
التي تحمي صاحبها ، وتضمن له الظفر والسلامة معاً .

وعلى عكس هذا كان حافظ أقبل الناس حظاً من المهارة ،
وأيسرهم نصيباً من المداورة ، وأعظمهم قسطاً من الصراحة
ما وسعته الصراحة ، فإن ضاقت به فالخوف الصريح ،
والاشفاق الذي لا غبار عليه .

لقيته مرة عند صاحب الدولة محمد محمود باشا ، فأنشدني
شعراً له يمدح به صاحب الدولة ، ويثني فيه على جهوده وبلائه
في مفاوضة الانجليز . وكنت أعرف منه هذا الضعف وأحب
أن أداعبه ، فقلت له - والرئيس يسمع ومن حوله جماعة من
الاحرار الدستوريين - : « ما أجمل هذا الشعر وما أقواه ! »
قال : « أتسمعون ؟ سجلوا عليه فإنه خليق بعد ذلك
أن ينقذني »

قلت : « اشهدوا على أنى مستعد للثناء على حافظ في غير
تحفظ إذا نشر هذا الشعر »

قال مقهقهاً : « اذمنى ماشئت في غير تحفظ ، فلن أنشر هذا
الشعر لأنى لا أريد أن أحال على المعاش الآن » قلت :

« فاني سأنشر فصلاً عنك كله ثناء وسأستشهد ببعض هذا الشعر » وكنت قد حفظت منه شيئاً . قال : « ولا هذا ايضاً » وقضى المجلس وقتاً طويلاً في الضحك من اشفاق حافظ . وكذلك كان حافظ مع النقاد يخافهم كما كان يخافهم شوقي ، ولا يثبت لخصومتهم كما لم يكن شوقي يثبت لخصومتهم . ولكنه لم يكن يغري بهم أحداً ، ولا يؤلب عليهم أحداً ولا يأخذهم من خلف بأطراف اليد ، وإنما كان يعبت بهم اذا تحدث الى اصحابه ، ويعبت بهم اذا لقيهم ، ويتلطف لهم في كل حال .

كان شوقي مجدداً ملتوى التجديد ، وكان حافظ مقلداً أصريح التقليد . ويمضي الزمن على حافظ وشوقي فاذا تقليد حافظ يستحيل - لا أقول الى تجديد بل أقول الى نضوج غريب وقوة بارعة وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضاً . واذا تجديد شوقي يستحيل شيئاً فشيئاً الى تقليد ، حتى اذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدمات من الشعراء ، لا يتستر فيه ولا يحتاط . ينشئ القصيدة فلا تحتاج الى تعب أو مشقة لتجد القصيدة القديمة التي يحاكيها ، سم هذا معارضة أو محاكاة أو تقليداً ، فذلك عندي سواء لأنه ينتهي الى نتيجة

واحدة ، وهى أن الشاعر قد رجع الى القدماء يلتمس عندهم مثله الأعلى . ومع ذلك فمن الخير أن نتعرف طبيعة الشعارين ومزاجهما الفنى ، والينبوع الذى كانا يستقيان منه .

(٥)

فأما طبيعة حافظ فيسيرة جداً ، لا غموض فيها ولا عسر ولا التواء ، وهذا اليسر هو الذى يحببها إلينا ، وهو الذى يجعلها فى الوقت نفسه فقيرة قليلة الحظ من الخصب والغنى ، حافظ تلميذ صريح للبارودى قلده منذ نشأ ، تم تشجيع فقلد المتقدمين الذين كان يتأثرهم البارودى نفسه . وكما كان علم البارودى بالأدب محدوداً لا يتجاوز الأدب القديم يحفظه وقلها يفقه عميقه ، فقد كان علم حافظ محدوداً كذلك . كان حافظ يلم بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهماً . ستقول ولكنه ترجم البؤساء ، واشترك فى ترجمة كتاب فى علم الاقتصاد مع صديقه مطران . وهذا حق فقد ترجم البؤساء أو مقداراً من البؤساء ولكن فى أى مشقة ومع أى جهد ! رحم الله حافظاً ، لقد لقي فى ترجمة البؤساء عناء عظيماً ، عناء فى الفهم ، عناء فى استشارة المعاجم ، وعناء فى الصيغة العربية نفسها . وكثيراً ما كان حافظ يعجز عن فهم فكتور هوغو فيقيم نفسه مقامه

ويعوضنا من معنى الكاتب الفرنسى لفظه هو بما فيه من جمال
وجزالة وروعة . أما كتاب الاقتصاد فسل صديقه مطران
ينبئك بالخبر اليقين . لم يستفد حافظ اذاً لأدبه وشعره من اللغة
الفرنسية شيئاً يذكر ، فهو غير مدين لأوربا بشيء من أدبه .
ثم لم يكن حافظ فقيهاً بالأدب العربى اذا توسعنا فى معنى هذا
الأدب . لم يكن يحسن علوم العرب ولا فلسفتهم ، بل لم يكن
يعرف من هذه العلوم والفلسفة شيئاً . انما كانت ثقافته من
كتاب الأغانى ودواوين الشعراء ، وكان يفهم الأغانى والدواوين
بقدر ما يستطيع ، فيصيب كثيراً ويخطئ أحياناً . ويكفى أن
تقرأ مقدمة ديوانه وتراه يزعم أن السفاح قد أفنى أمة بأسرها
ليبتين من الشعر قالها سديف ، لتعلم الى أى حد بلغت ثقافة
حافظ ، فلم يفن السفاح أمة وأنما نكل بالأسرة الاموية تنكيلاً
شديداً لم يفنها ولم يبدها . ولكن حافظاً كان يظن فى أول
هذا القرن أن إفناء الأمويين افناء لأمة .

غنيت ذاكرة حافظ ، ولكن عقله ظل فقيراً ، فاعتمدت
شاعريته على الذاكرة من جهة ، وعلى الحياة المحيطة به من جهة
أخرى . استمدت موضوع شعره من هذه الحياة واستمدت
صورة شعره من تلك الذاكرة . وكانت ثقافة حافظ العقلية

محدودة فلم ينفذ عقله الى طبائع الأشياء، ولم يصل الى أسرارها
فعجز عن اجادة الموضوع، ولكن ذاكرته كانت قوية جداً
وكان حظه من الحفظ غريباً، وكان قد ابتكر لنفسه سليقة
عربية أو قل سليقة اعرابية فاتقن الصورة وبرع فيها، وكان
أقرب تلاميذ البارودي الى البارودي .

تجد هذا الشعور حين تقرأ الفنون الشعرية التي برع فيها
حافظ، حين تقرأ رثاءه وشكواه للزمان، وتصويره للسياسة
والاجتماع. ان تجد في هذا الشعر عمقا، ولئن حملته وأخرجته
من صورته الرائعة فلن يترك في نفسك أثراً ولكنك واجد
في صورته نفسها، في الألفاظ التي يتخيرها الشاعر في الأسلوب
الذي يلائم به بين هذه الألفاظ، ما يملأ نفسك لوعة وحزناً
وحباً وإعجاباً. كانت نفس حافظ بسيطة يسيرة لاحظ لها
من عمق ولا تعقيد، وكانت لهذه الخصال نفسها محبة الى
الناس مؤثرة فيهم. وكان شعر حافظ صورة صادقة لهذه النفس
البسيطة اليسيرة فأحبوه كما أحبوا مصدره، وأعجبوا به كما
أعجبوا بينبوعه .

ولما كانت نفس حافظ في جوهرها نفساً مصرية كانت
قطعة من هذه النفس المصرية الاسلامية، التي تجدد بساطتها

وسداجتها في كل أثر من آثار المصريين المسلمين ، فلم لا يحجبها
الناس وانما يرون فيها أنفسهم ؟ ولم لا يعجب بها الناس وانما
ينظرون فيها الى صورهم ، تعكسها مرآة صافية وضيئة نقية
لا يشوبها صدأ ولا يغشاها غبار ؟

(٦)

هذه طبيعة حافظ يسيرة كما ترى ، أما طبيعة شوقي فشيء
آخر ، معقدة ينبثنا شوقي نفسه بتعقيدها . فيها أثر من العرب
وأثر من الترك وأثر من اليونان وأثر من الشر كس . التقت كل
هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس
شوقي ، فكانت هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد
الأشياء عن البساطة وأناها عن السداجة ، وهي بحكم هذا
التعقيد والتركيب خصبة كأشد ما يكون الخصب ، غنية كأوسع
ما يكون الغنى . ثم لم تكد هذه النفس الخصبة الغنية المتوقدة
تتصل بالحياة حتى لقيت من حوادثها وتجاربها ، ومن كنوزها
وغناها ما يزيد لها خصباً الى خصب وثروة الى ثروة .

كان شوقي يحسن التركية وكان متقناً للفرنسية ، قد برع فيها
نطقاً وفهماً . وكان في أول أمره كثير القراءة حريصاً على الفهم
فقراً كثيراً وفهم كثيراً وتمثلت نفسه ما قرأ وما فهم ، وانضم

الى هذه العناصر التي كانت تتركب طبيعته عنصر جديد هو
 العنصر الفرنسي الذي عمل في عقله وخياله ومزاجه كله، ونمت
 العناصر الأخرى بالقراءة وبالحياة. عاشر شوقي العرب في
 شعرهم وأدبهم فعظم حظه من العربية، وعاشر الترك في حياته
 اليومية، واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركي فيه.
 ولأسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقي قدماء اليونان كما
 عاشر قدماء العرب، ولو قد فعل لأهدى الى مصر شاعرها الكامل.
 كان شوقي في أول أمره مثقفاً يحب الثقافة ويشهد في
 طلبها والتزيد منها، ولكنه كان كغيره من الشبان المصريين
 يسرون في الدرس والتحصيل على غير هدى، ولا سيما حين
 يدرسون في أوربا، لا يقرأون من الأدب الفرنسي مثلاً
 إلا ما لا بد للرجل المثقف من قراءته، من هذه الآثار العليا
 التي فرضت نفسها على الناس فرضاً، فأما التأنق في الثقافة
 والتماس الترف في الأدب فلا حظ لهم منه. وكذلك كان
 شوقي حين ذهب الى فرنسا آخر القرن الماضي. إذا ذكر
 الشعر الفرنسي ذكر لا مارتين وبجيرته التي ترجمها الى العربية،
 أو ذكر لافونتين وأساطيره التي قلدها في العربية، وإذا ذكر
 الفلسفة ذكر جول سيمون، ومن المحقق أن آثار لا مارتين

ولافوتين آيات في الأدب الفرنسي، وأن فلسفة جول سيمون لها قيمتها. ولكنك لا تلاحظ أن شوقي يذكر بودلير أو فرلين أو سولي بريدوم أو مارمييه من الشعراء الفرنسيين، ولا تراه يذكر تين أورينان أو برجسن من الفلاسفة. ذلك لأنه لم يكن يسير في ثقافته على هدى، وإنما كان يأخذ من الأدب الفرنسي أيسره وأدناه إلى متناول اليد. وكذلك كان تجديد شوقي متأثراً بهذا الحظ من الثقافة الفرنسية، أي أنه كان يتأثر بالقديم الفرنسي أكثر مما كان يتأثر بالجديد. ولو قد اتصل شوقي بالمجددين الذين عاصروه في شبابه من شعراء الفرنسيين لسلك شعره سبيلاً أخرى. ولكنه لم يفعل، ولكنه لم يطلق لطبيعته على ما هي عليه حريتها، بل قيدها وردّها كارهة على أن تتأثر في إنتاجها الأدبي بسياسة القصر حيثئذ وما كان يحيط به من الظروف. ولو قد أطلقها أو أرسل لها العنان لبعض الشيء لغيرت حياة الشعر العربي الحديث. ولست في حاجة إلى أن أتكلف المشقة في الاستدلال على ذلك، فقد كانت طبيعة شوقي من الخصب والقوة بحيث لم تكن تذوق أثراً أدبياً يمكن محاكاته إلا حاولت هذه المحاكاة وجدت فيها، وكانت توفق أكثر الأحيان في هذه المحاكاة توفيقاً عظيماً.

فلو أن شوقي قرأ الالياذة والأودسا كاملتين وفهماهما حق
الفهم وأطلق لنفسه حريتها لحاول أن ينشئ الشعر القصصى
في اللغة العربية . لا أقول على نحو ما كانت الالياذة والأودسا
من الطول ، ولكن على نحو ما كانت الالياذة والأودسا من
الفن . ولو أن شوقي قرأ تمثيل اليونان وتمثيل المحدثين وأطلق
لطبيعته حريتها لعنى بالتمثيل شعراً ونثراً في شبابه ولأعطى
اللغة العربية من هذا الفن حظاً له قيمة صحيحة . ولو أن
شوقي قرأ شعر الشعراء الفرنسيين الذين عاصروه في شبابه ،
ولو أنه اختلف الى أنديتهم في باريس حين كان يقيم فيها
(ولم تكن أنديتهم مغلقة) لتغير مثله الأعلى في الشعر ، ولما نظر
الى القدماء من العرب ولا الى لامارتين ولا فونتين وأضرابهما
من الفرنسيين الا كما ينبغي ان ينظر اليهم الشاعر الحديث ،
أى من حيث أنهم يكونون أصل الثقافة ومن حيث أنهم يتمتعون
القارئ باللذة الفنية ، لا من حيث أنهم المثل العليا للشاعر
في هذه الأيام . ولكن شوقي قصر بنفسه عن هذه المنزلة
أو قصرت به الظروف ، اما لأنه لم يقرأ كما كان ينبغي أن
يقرأ ، واما لأنه لم يعمل كما كان ينبغي أن يعمل ، تقصير في
القراءة ومجاعة الانتاج الأدبي الأجنبي من جهة ، وتفريط في

ذات الحرية الأدبية، وخضوع لأحكام السياسة من جهة أخرى.
هاتان الخصلتان هما اللتان قصتا جناحي شوقي فلم يستطع أن
يرتفع إلى حيث كانت تعده طبيعته من سماء الشعر والخيال.
وأغرب من هذا وأبلغ في الحزن والأسى أن هذه الطبيعة البارعة
التي لم تعرف مصر مثلها في عصرها الإسلامي العربي، والتي لم
يعرف التاريخ الأدبي العربي مثلها منذ كان أبو العلاء لم توجه إلى
فهم الآيات الأدبية الخالدة في الآداب الأجنبية، ولم تتعمق في
درسها، واستكشف أسرارها كما ينبغي. وإنما علم شوقي بهذه
الآيات العليا من آداب اليونان والرومان والفرس
والأوربيين على اختلافهم كان ضئيلاً رقيقاً، لا هو بالعرض ولا
هو بالعميق. كان شوقي يجهل حقيقة هذه الآيات فاذا عرف
شيئاً منها فأنما يعرفه بالشهرة، وعلى نحو ما يتعلم الناس الذين
يكتفون بدوائر المعارف أو بما يكتب للطلاب في الكتب
المدرسية، وليس هناك دليل على ذلك أوضح من هذه القصيدة
التي أنشأها شوقي في شكسبير ونشرها في الجزء الثاني من
ديوانه صفحة (٥) فاقول ما يحسه قارئها أن شاعرنا لم يعلم
من أمر شاعر الانجليز إلا شيئاً ضئيلاً جداً يعرفه المثقف
العادي، وهو على كل حال لم يفهم روح شكسبير ولم يتمثله

ليس من المهم أن يتقن الشاعر

ولم يحسن بل لم يحاول تصوير هذا الروح . وكل ما في القصيدة مدح لانجلترا أول الأمر ، ثم ثناء على شكسبير غريب ، يشبه فيه أبيات شكسبير بالآيات المنزلة ، ويشبه معاني شكسبير بعيسى . ولست أدري ما هذا الحسن المشترك بين معاني شكسبير وبين المسيح . بل لست أدري كيف يذكر شكسبير المتأثر بوثنية القدماء وآداب الشمال الأوربي الى جانب المسيح ، وكيف يشبه أدب شكسبير بالانجيل . انما هو كلام يقال ويعتمد صاحبه على أن الذين سيقروا به ستروعههم الألفاظ دون أن يبحثوا عن المعاني لأنهم لا يعرفون من أمر شكسبير ، ولا من أمر المسيح والانجيل شيئاً كثيراً . ثم يقول شوقي إن قصص شكسبير تمثل الحياة ، وكل مثقف يعرف هذا ويقول ، بل كل مادمح لشاعر من الشعراء الممثلين يقول فيه هذا ، بالحق حيناً وبالباطل أحياناً . ثم يتجه شوقي الى شكسبير فيسأله أسئلة عادية قد ألفها الناس منذ قرأوا رثاء أبي العلاء ، وعرفوا تصويره لبلى الأجساد في القبور . ثم يطلب الى شكسبير الذي أجرى الدم أنهاراً في قصصه أن ينفض ليرى كيف جرى الدم بحاراً في ظل الحضارة الحديثة ، ويذم الحرب كما يذمها كل انسان . هذا علم شاعرنا بشكسبير وهذا

تصوير شاعرنا له ورأيه فيه .

وأين يقع هذا كله من آراء الشعراء الفرنسيين والألمان
المحدثين في شكسبير . وإني لأعرف محاورات لجوت حول
بعض القصص التي تركها شكسبير حول هملت مثلاً في
ولهلم مايستر ، لا يذكر معها ما قاله شوقي من الشعر . ومع
ذلك فقد كان من الحق على شاعرنا أن يكون عليه بشكسبير
أوضح من علم الألمان والفرنسيين به في القرن الثامن عشر ،
لأن فقه هذا الشاعر العظيم قد تقدم في قرن ونصف قرن
تقدماً عظيماً . ومثل هذا ما يقال في علم شاعرنا بأفلاطون
وأرسطاليس . وقد لاحظت قديماً أن شوقي أراد أن يثني
على الأستاذ لطفى السيد حين ترجم كتاب الأخلاق
لأرسطاليس فنسب إلى المعلم الثانى آراء أستاذه أفلاطون ،
لأنه لم يقرأ هذا ولا ذاك وإنما عرف أطرافاً من فلسفة هذا
وذاك في دوائر المعارف ، وفي الكتب المدرسية . هذا التقصير
في الدرس والتحصيل ، وهذا الكسل العقلى أصاب شوقي
وأصاب حافظاً ، وقصر بالشاعرين عن المكانة العليا التي كانا
خليقين أن يبلغاها بطبيعتيهما القويتين . وكثيراً ما نعت
عليهما ولومتهما في ذلك . ولكن حظ شوقي من هذا التقصير

اعظم من حظ حافظ لأن شوقى هية له من وسائل الثقافة العربية والأجنبية ما لم يهياً لحافظ ، كما رأيت ولأن شوقى هية له من النعيم ، وأسباب الترف والراحة ما كان يستطيع معه أن يفرغ للدرس ساعات من نهار بين حين وحين . على حين حرم حافظ كل شيء أو كاد يحرم كل شيء ، وعلى حين لم يكن حافظ يزعم انفسه ما كان يطمح اليه شوقى من مكانة ومنزلة في الشعر .

٨

(٧)

وتمضى الأيام على حافظ وشوقى بعد أن عرفهما جمهور الأدباء في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ويسلك كل منهما طريقه في التطور الأدبي .

فأما حافظ فقد لقي الأستاذ الامام واتصل به وأصبح له صديقاً ، وما هي الا أن يتصل بأصدقاء الأستاذ ، وفيهم العالم الأزهرى كالشيخ عبد الكريم سلمان ، وفيهم المجند فى الاجتماع كقاسم أمين ، وفيهم القاضى الثبت الذى أدرك حظاً عظيماً من المجد ، ولكن أستار الغيب ما زالت مسدلة بينه وبين مستقبل عظيم كسعد زغلول ، وفيهم رؤساء العشائر

والأنس الكبرى كحسن عبد الرازق وعلى شعراوى ومحمود سليمان . فيهم كل هؤلاء على اختلاف نزعاتهم وميولهم وأهوائهم ومنازلهم الاجتماعية . وهم جميعاً متفقون على أن حال الشعب سيئة وعلى أن استنقاذ الشعب من هذه الحال فرض عليهم هم قبل غيرهم من الناس ، وهم يسلكون الى هذا سبباً مختلفة . ويتصل حافظ بغير هؤلاء من زعماء السياسة الحادة والملتوية فى أول هذا القرن ، يعرف مصطفى كامل وعلى يوسف ، يتحدث الى هؤلاء جميعاً ، يأنس الى بعضهم وينفر من بعضهم الآخر ، وأولئك هؤلاء يحبونه ويؤثرونه بالمودة والبر .

فانظر الى ابن الشعب وقد رفعه الشعر الى أعلى مكانة
حيث تتنافس فيه الأرستقراطية الشعبية وتحرص على قربه
والأنس به ، وهو على ذلك لم يقطع صلته ولن يقطعها بأثرابه
من أوساط الناس ، بل هو شديد الاتصال بجماعة من الشعراء
والأدباء والباءسين . يأنس اليهم ويعطف عليهم ويصفهم
مودته ويبحث عنهم إن طال عهدهم به . وهم يعرفون منه
ذلك ويرضون ثم يتجنون ، ثم يسرفون فى التجنى والتحكم .
وأخبار إمام العبد مع حافظ رحمهما الله لا تزال معروفة

يتفكه بها الناس ، ومجالس حافظ في قهوة متاتيا وقهوات باب
الخلق وقهوات الناصرية معروفة مذكورة أيضا .

هو إذا صديق الشعب كله ، صديق الفقراء والأغنياء
وأوساط الناس ، صديق العلماء المستنيرين وصديق غيرهم من
الذين لاحظ لهم من ثقافة أو ليس لهم من الثقافة إلا حظ
ضئيل ، تراه في كل بيئة وتراه في كل مكان ، تراه في حديقة
الأزبكية يقرض الشعر ، وتراه في الشوارع يمشي أصدقاؤه
باسم الشجر مشرق الوجه ، مظلم النفس ضاحكا بما يحزن وبما يسر .

خالط الناس جميعاً فأصبح هو الناس جميعاً ، وصور نفسه
في شعره فصور بها الناس جميعاً ثم يموت الأستاذ الامام
ويتبعه قاسم ويتبعهما مصطفى كامل ، ويظهر نبوغ حافظ في
الرثاء بموت هؤلاء الناس الذين كانوا أصدقاؤه ، لأنهم كانوا
أعلام الأمة وذخرها ، جزع أنصار الإصلاح الديني والاجتماعي
لموت الأستاذ الامام وموت قاسم ، فكان شعر حافظ أصدق
صورة لهذا الجزع لا غلو فيها ولا تقصير ، ولا ضعف فيها
ولا وهن . وجزع الشعب كله لموت مصطفى كامل فكان شعر
حافظ صورة صادقة لهذا الجزع ، نار ملتبهة ولوعة لا حد لها
وأخذت حياة حافظ تقفر من حوله بموت الأصدقاء وسو

الحال ، فنفي ولكن في مصر ، وأبعد ولكن في القاهرة ، وأسند اليه
منصب في دار الكتب فأصابه مثل ما أصاب شوقي . واضطر
الى أن يصانع ، ويدارى ويحسب للقول حساباً ، ويكظم نفسه
على ما تكره ، ويترك شعبه من غير ترجمان . رحم الله حشمت
باشا ! أراد أن يبر بصديقه ويحميه من البؤس والشقاء ، ويمهد
له حياة ناعمة راضية فحرم أمته شاعرها وطمر أو كاد يطمر
هذا الينبوع الصافي العذب . ذلك أن حافظاً كان لا يزال
ناشئاً في الشعر على تفوقه وبراعته ونبوغه في السياسة ، كان
في حاجة الى أن تحفظ له حريته واسعة مطلقة ليلبغ شعره
أشدّه ولينبسط ظله على مصر كلها ، فجاء هذا المنصب عقبة
في سبيل النبوغ ! خيل الى حافظ والى الذين أسندوا اليه هذا
المنصب أنه سيخلص من البؤس فيفرغ للشعر ، ولم لا ؟ لقد
عرفت فرنسا كيف تستثمر شعراءها . ألم تسند الى لكونت
دى ليل منصباً كمنصب حافظ في مكتبة مجلس الشيوخ ، فلم
يؤثر ذلك في شعره الا أحسن الأثر جودة ونمواً وخصباً ،
فلم لا يكون حافظ مثل غيره من الشعراء ؟ آه ! لأن مصر
ليست كغيرها من البلاد ، ولأن البيئة المصرية ليست كغيرها
من البيئات . مصر في حاجة الى المحن ، لم تألم بعد كما ينبغي ، ولم

تصهرها الهموم كما ينبغي ، مصر في حاجة الى العلم ، مصر في حاجة الى الثروة الأدبية ، مصر في حاجة الى النشاط المتصل أشد أعدائها الراحة ! وكذلك أبنائها جميعاً وكذلك شعراؤها بنوع خاص . كان بؤس حافظ في نفسه شرطاً لا اتصال شعره ونمو نبوغه ، كان حافظ محتاجاً الى أن يظل بائساً ليرى بؤس الشعب من حوله وليحسه وليصوره . ولكن حافظاً غنى بعد فقر ، واطمأن بعد اضطراب ، فهدأت نفسه ثم اشتد بها هذا الهدوء ، فضاقت بالحياة وضائق به الحياة أيضاً .

وليت حافظاً وقد فقد البؤس الذي كان سبيله الى المجد لم يفقد الحرية ! فقد كان يستطيع مع الحرية أن يجد له في القول مذهباً . ولكن الموظفين في مصر عبيد مهما تكن الحكومات القائمة ، يجب أن يقدرُوا لأرجلهم موضعاً قبل الخطو ، وألا يقولوا الا بمقدار !

ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها ، فلم يكن من الممكن ولا من اليسير أن يتجه الى تلك الفنون الشعرية الخاصة التي تصل بين الشاعر وبين الطبيعة ، والتي ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان . لم تكن النجوم في السماء ولا الرياض

فى الأرض ، ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظاً شيئاً ، لأن حافظاً لم يكن شاعر الطبيعة ، وإنما كان شاعر الناس .

فى سبيل الله هذه الأعوام الطوال التى قضاهـا حافظ فى دار الكتب لا يعمل شيئاً ، ولا يقول شيئاً ، وإنما يقضى صباحه فى الدار يعبث بالموظفين ويتندّر عليهم ، أو على باب الدار يدخن سيجاره الضخم ، أو فى قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه فى الأندية الخاصة أو العامة !

على هذا النحو قضى حافظ ثلث حياته ، يرثى من مات ولكن بحساب ، ويقول هذا الشعر الذى يقال فى المناسبات ، والذى لا يدل عادة على شىء . ولا تكاد ترد الحرية الى حافظ بأحـالته على المعاش حتى يتنفس ، وإذا هو قد اتصل بالشعب من جديد ، وإذا هو يتأهب لينفجر وليرسل زفرات الشعب ناراً مضطربة تلتهم ما حولها ، ولكنه شيخ قد تقدمت به السن وذهبت بقوته الراحة فى دار الكتب ، وضاع نشاطه هباء مع دخان الشيشة والسيجار ، فلا تثبت قواه الفانية لهذه الأمانة الثقيلة التى نهض بها شاباً وكهلاً ، وكان يستطيع أن يستقل بحملها حين بلغ الأربعين ، وحين

أسند إليه المنصب في دار الكتب فيقضى ! وإن أصدق ما
يقال فيه لقول الشاعر القديم في عمر :
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها

بوائق في أكامها لم تفتق

(٨)

وأما شوقي فيمضى في طريقه التي رسمها لنفسه منذ أرسل
من باريس همزيتة التي يمدح بها الخديوى :
« خدعوها بقولهم حسناء... »

فطلب القصر الى الجريدة الرسمية أن تسقط الغزل وتنشر
المدح ، وود الشيخ عبد الكريم سلمان لو أسقط المدح ونشر
الغزل ! فلم ينشر من القصيدة شيء ، وعرف شوقي أن لا بد
من الاحتياط في التجديد .

يمضى شوقي في هذه الطريق موظفاً في القصر شاعراً
للأمير يمدحه كلما نادى الى ذلك داع ، وحين لا يدعو الى ذلك
داع يتفنن في هذا المدح فيجيد مقدماته غزلاً ووصفاً ولا
يجيد في المدح نفسه إلا قليلاً .

وكان شوقي كما يقول في مقدمة ديوانه القديم يكوه المدح ،
وينكره على الشعراء المتقدمين ويود لو برىء الشعر من .

التهالك عليه والتنافس فيه ، ولكنه نشأ رغباً في أن يتصل
بالأمير ، حريصاً على أن يكون شاعره ، حاسداً للمتنبى على
سيف الدولة ، وقد اتصل بالأمير وأصبح شاعره ، فهو سعيد
بذلك يعتز به ويفخر ويتمدح :

شاعر الأمير ، وما بالقليل ذا اللقب !

نعم ليس قليلاً هذا اللقب في رأى شوقي ، فقد كان أمنيته
صبيّاً ، وقد كان أمنيته شاباً يطلب العلم في مصر ، ويطلبه في
أوربا ، ليس بالقليل وقد رأى شوقي مكانة « عليّ الليثي » من
الأمير ومن الناس ، ليس بالقليل في هذه البيئة التي لا تزال
تذكر عهد اسماعيل وما كان فيه من رفع وخفض ومن عز
وذل ، ومن سلطان للحاشية والمقربين ليس بالقليل ، بل هو
قد يكون مفيداً ، قد يكون مذكياً لنار الشعر ممهداً سبيل
التفوق والنبوغ اذا كان الأمير أديباً كسيف الدولة ، أو كان
هم الأمير بعيداً في الامارة والسياسة . ولكن أمير شوقي لم
يكن أديباً فلم يفهم شوقي من هذه الناحية ، ولم يكن أمير
شوقي بعيد المهمة لأنه جرب بعد المهمة فساءت عاقبة التجربة ،
وعرف صدق المثل القائل : « أفلح من طار بجناح ، أو
استسلم فأراح » وآثر السلامة والراحة ، وعكف على أموره

الخاصة يعنى بها وعلى ثروته الخاصة ينميها ، وأين يكون ذلك
من شعر شاعر الأمير ؟

شوقى إذن كحافظ يوم نفي الى دار الكتب ، ربة شعره
سجينة ، ولكنها سجينة فى قفص ذهبي هو القصر ، تتغنى
ولكن بغناء فاتر متشابه بالمدح ، وقد قيد شوقى ربة شعره
هذه بنفسه منذ كان فى باريس ، فلما عاد الى مصر ظهر أن
القيد الباريسى لم يكن ثقيلا كما ينبغي ، فأضيفت اليه قيود
وأغلال وأصبحت ربة الشعر أسيرة الأمير لا تنطق إلا بما
يريد وحين يريد . وكان الأمير ذكياً وكان الشاعر ذكياً أيضاً ،
وإذا لم يتح للأمير أن يجعل من شوقى أبا الطيب كما فعل
سيف الدولة ، أو فرجيل كما فعل أغسطس . فقد يستطيع
الأمير أن يستعين بشوقى الذكى على تدبير أموره الخاصة ،
ويستطيع شوقى الذكى أن ينال حظوة الأمير بالسياسة إن لم
يستطع أن يحبب اليه الشعر . وكذلك يصبح الشعر سمة
لشوقى لا صناعة ، ويستحيل الشاعر الى رجل من الحاشية ،
ورجل القصر يدور حول الأمير ، ويلتوى ما لتوت سياسة الأمير ،
يتحفظ فى حديثه العادى فكيف به إذا مات الأستاذ الامام
أو قاسم أمين أو مصطفى كامل ! وكيف به إذا جزع الشعب

لنشواى ! وكيف به اذا طالب الشعب بالدستور !

هو شاعر الأمير فخير له أن يسكت ، فاذا لم يكن بد من القول فحق عليه أن يحتاط . ثم هو شاعر الأمير يحب أن يفكر ويتدبر فيما يحدث بينه وبين الناس من صلة ، يجب أن يقيس صداقته وعداوته وقربه وبعده برضى الأمير وسخطه . واذا فلن تكون بينه وبين طبقات الشعب المختلفة هذه الصلة الواضحة الصريحة . هذه الصلة التى تجمع بين قلب الشاعر وقلب الشعب الصافية لن يحس شوقى ما كان يحس حافظ من حياة الشعب ، وإن أحسه فلن يستطيع الا الاعراض عنه ، ليس شوقى ترجمان الشعب ولسانه ، وإنما هو ترجمان الأمير ولسان الأمير . وما أشد ما كانت تتسع مسافة الخلف بين الشعب وبين الأمير . ومن هنا تستطيع أن تقرأ رثاء حافظ وشوقى لمصطفى كامل فستحس فى شعر حافظ قلب الشعب يخفق ، وسترى نفسه تضطرم . وستجد فى شعر شوقى هذا البيت الذى سخر منه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بحق ، لأنه لا يدل على شيء الا على أن الشاعر مجامل يريد أن يقول شيئا :

أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت فى القرآن !
ومع أن ثقافة شوقى أخصب وأغنى من ثقافة حافظ فلم

يستطع شوقي أن يفرغ للشعر الخالص في قفصه الذهبي ، كما
أن حافظ لم يستطع أن يفرغ لهذا الشعر في دار الكتب ،
لا لأن شوقي كان يؤثر الفراغ وتدخين الشيشة والسيجار ،
بل لأن الشخصية القوية التي كان يمتاز بها الأمير استطاعت
أن تستأثر بشوقي وتغنيه في السياسة وتدير أمور القصر ،
ويريد الله وتريد الأحداث أن تطلق ربة الشعر من عقالها ،
وأن تخرج من هذا القفص الذهبي فلا تعود إليه ، ولكن بعد
ماذا ؟ بعد أن أنفق شوقي ربع قرن سجيناً في كنف الأمير أو
في قصره !

حيل بين الأمير وبين الإمارة والقصر ، وحيل بين
بين حاشية الأمير وبين القصر أيضاً ، فمنهم من تبع الأمير ،
ومنهم من تخلف عنه ، وكان شوقي من المتخلفين .

أفرحت ربة الشعر بحريتها ؟ أَرْضِيت ربة الشعر بهذا
الهواء الطلق تننسمه متى شاءت ، وبهذا الجو الفسيح تطير
فيه ليف أحبت ؟ وبهذه الأشجار الباسقة والحدائق النظرة
تنزل منها حيث أرادت مغردة بصوتها العذب مصفقة بجناحيها
القويين ؟ لست أدري ، ولكن الذي يكرره الناس ويؤكدونه
أن ربة الشعر ضاقت بحريتها أول الأمر ، وودت لو تعود

الى سجنها الجميل الذي ألفتها واستعذبت المقام فيه ، ويقال
إنها استفتحت باب القصر بتلك القصيدة المشهورة الجميلة :
الملك فيكم آل اسماعيل لا زال بيتكم يظل النيلة

والتي يقول فيها هذا البيت المشهور .

أخون اسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب اسماعيل !
ولكن باب القصر لم يفتح وأعرض الشاعر عن أميره ،
فلم يلحق به ، وأعرض القصر عن شاعر الأمير فلم يفتح له ،
وما هي الا أن يظلم الشاعر ، يظلمه الأجني فتضيق به أرض
مصر ويؤمر بالرحيل ، فالى أين يذهب ؟ أيزهد الى قسطنطينية
حيث أخواله وعمومته من الترك وحيث الأمير ؟ أم يذهب
الى فرنسا حيث الشباب الغض والذكرى المبتهجة ؟ ولكن
الحرب في قسطنطينية والأمير في قسطنطينية ، ولكن الحرب
في فرنسا والحرب في أكثر بلاد أوروبا . هنا اختارت ربة الشعر
وطناً من أوطانها ففكرت في أسبانيا واستقرت في الأندلس .
ولم تكن ربة الشعر فرحة ولا مبتهجة ، وإنما كانت محزونة عميقة
الحزن ، محزونة على القصر ، محزونة على الوطن ، محزونة على هذه
الآمال التي قضبت قضباً ، وربة الشعر تحي النفوس دائماً متى
تغنت . تحيها بالغناء الفرح وتحيها بالغناء الحزين . وقد تغنت

ربة الشعر في الأندلس فأحيت نفوس المصريين ، وأذكت في
هذه النفوس جذوة الوطنية ، ووصلت قديم العرب في
الأندلس بحديثهم في مصر . إيه ياربة الشعر ! احزنى على
سجنك ما استطعت وابكى عليه ماشئت ، فان حزنك يملأ
نفوسنا بهجة ودموعك تنقع ما في قلبنا من ظمأ . لقد وجدناك
بعد أن فقدناك ، لقد رضيت في ظل القصر فغضبنا . فتعالى
الآن شيئاً من الايثار في المنفى ، اغضبي أنت واسخطي لنبتهج
نحن ونرضى !

وكذلك حياة الشعراء ، قد صورها العباس بن الأحنف
فأحسن تصويرها في هذا البيت :

كنت كأنى ذبالة نصبت تضى للناس وهى تحترق
وتضع الحرب أوزارها ويؤذن للشاعر أن يعود الى
وطنه فيعود قوياً شديداً النشاط . ولكنه لا يكاد يبلغ القاهرة
حتى يرى القصر فيحن اليه ويدنو منه ، والقصر لا يعرفه ولا
ينكره ، لا يدنيه ولا يقصيه . إيه ربة الشعر ! ليس الى السجن
سبيل . اقنعى إذا بهذه الحياة الحرة ، انظري ، إن همك لبعيد
وانك لمسرفة في الطمع . ماذا ؟ اتضيقين بالحرية ! وان الشعب
المصرى من حولك ليسفك دمه في سبيل الحرية ! لا ترفعى

بصرك الى السماء ، فان النجوم باقية والشمس باقية ، وقد تستطيعين
أن تنظري الى النجوم والشمس بعد حين . ولكن اخفضي
بصرك ، انظري الى الأرض ، لن ترى عليها ذهب اسماعيل
ولكنك ستجدين عليها دم أبناء النيل يراق في سبيل هذه الحرية
التي تضيقين بها وتنفرين منها ! ويخفض الشاعر بصره الى
الأرض ويرى الشاعر أمته تراق دماؤها وتنتهك حرمتها ،
وتأمل في كل شيء ولكنها ترتقب الأمل من كل شيء ! يا للطبيعة
الخصبة ! يا للقلب الذكي ! هذا شاعر القصر يصبح شاعر الشعب !

نعم لقد عز علي شوقي فراق سجنه الذهبي ، لقد حن الى هذا
السجن مرة ومرة ، وما أرى أنه كان يذكر هذا السجن والحنين
اليه وهو يقول هذا البيت من قصيدته في مشروع ملنر :

من يخلع النير يعيش برهه في أثر النير وفي نديه

ولكنه قد ذاق الآن لذة الحرية ، وظهر فيه عنصره العربي
وعنصره اليوناني ، فهو يحب الهواء الطلق وهو يحب
الديمقراطية ، وهو ينزل الى الشارع ويطوف فيه حيث يلقي
الناس ويتحدث اليهم ، ويسمع منهم ويشاركهم في لذاتهم
وآلامهم ، ثم يرقى الى سماء الشعر فاذا هو ترجمانهم الصادق

ومراتهم المجلوة الصافية . وكذلك الشعب قوى دائماً ، جذاب دائماً ، منه رفعة العظيم وبه خمول الخامل . رفع حافظاً حتى تنافس في قربه العطاء ، وجذب شوقى حتى فتن بعامة الناس وأغمارهم . وكانت هذه الفتنة مصدر عظمته الباهرة ونبوغه الصحيح . لقد كان شوقى فى أول أمره شاعراً أثراً ، يحب نفسه ويلتمس لها أسباب اللذة والنعمة ، ثم شاعراً موظفاً يقف ملكاته على الأمير والسلطان ، ثم عاد الى نفسه ثم رد الى شعبه فأصبح شاعر الفن وأصبح شاعر الشعب . ماذا ؟ بل وسع شعر شوقى فى هذا الطور من أطوار حياته مصر والشرق العربى الناهض كله . لقد كان فى شبابه يذكّر الشرق والاسلام ، ولكن الشرق والاسلام فى ذلك الطور كانا أسيرين فى يد السلطان من آل عثمان . أما الآن فالاسلام دين الحرية والعدل والمساواة بين الأمم والشعوب ، لا دين الملوك والأمراء وحدهم . والشرق أمم مضطربة ناهضة تسمو الى المثل العليا وتجد فى السمو اليها ، والشاعر يلتمسها عند نفسها ، يلتمسها فى الصحف ، يلتمسها فى الكتب ، يلتمسها فى الأندية ، يلتمسها فى الشوارع والقهوات والأسواق والخوانيت ، يلتمسها حيث تعيش وحيث تنمو ، لا حيث كان يلتمسها من قبل فى قصر

الأمير وفي ظل السلطان ، أصبح شوقي شاعر مصر كما
أصبح شاعر الشرق العربي .

وصل شوقي في شيخوخته الى ما وصل اليه حافظ في
شبابه ، لأن شوقي سكت حين كان حافظ ينطق ، ونطق حين
أضطر حافظ الى الصمت ، يا لسوء الحظ ! ليت حافظاً لم يوظف
قط ، ولت شوقي لم يكن شاعر الأمير قط ! ولكن هل تنفع
شيئاً ليت ؟ . لقد أسكت حافظ ثلث عمره ، وسجن شوقي
ربع قرن ، وخسرت مصر والأدب بسعادة هذين الشعارين
العظيمين شيئاً كثيراً . وتتقدم السن بشوقي وتكثر الحوادث
من حوله ويشتد بشاعريته النشاط ، فاذا جناح شعره ينبسط ،
وينبسط حتى اذا أظل الشرق العربي كله عاد شوقي فرفع
بصره الى السماء بعد أن ملأ عينيه بما في الأرض ، واذا هو
يرى في السماء الفن الخالص ؛ يرى التمثيل ويرى الغناء فينفق
بقية عمره في التمثيل والغناء . أما في الغناء فقد أجاد من غير
شك ، وأما في التمثيل فقد غنى فأطرب وأثر في القلوب ، ولكن
لم يمثل شيئاً لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالاً ، ولا يهجم عليه في
آخر العمر ، وانما هو فن يحتاج الى الشباب ويحتاج الى الدرس

ويحتاج الى القراءة الكثيرة . وقد أضاع شوقي شبابه في القصر .
وقد أضاع شوقي نشاطه وحدة ذهنه قبل أن يفرغ للدرس .
وقد كان شوقي قليل القراءة ، فكان تمثيله صوراً ينقصها الروح
وان حبسها الى الناس ما فيها من براعة في الغناء .

(٩)

ثم يقبل صيف هذا العام فيخترم حافظاً ، وهو يتأهب
للحرب كما تأهب أخيل بعد أن انحاز تحت الخيمة دهرأ .
ويقبل خريف هذا العام فيطفيء جذوة شوقي في هدوء ودعة
يلأثمان ما كان يمتاز به شوقي في حياته من هدوء ودعة . وكلا
الشاعرين قد رفع لمصر مجداً بعيداً في السماء . وكلا الشاعرين
قد غذى قلب الشرق العربي نصف قرن ، أو ما يقرب من نصف
قرن بأحسن الغذاء . وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربي
ورد اليه نشاطه ونضرتة ورواه . وكلا الشاعرين قد مهد
أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة التي لا بد من أن تقبل ،
هما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من
غير شك . هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التي
بدأت في نجد وانتهت في القاهرة ، وعاشت خمسة عشر قرناً أو

أكثر ، والتي ستستحيل وتتطور وتستقبل لوناً جديداً من ألوان الفن ، وضرباً جديداً من ضروب المثل العليا في الشعر . هما أشعر العرب في عصرهما . ولكن أيهما أشعر من صاحبه ؟ أقترى أن ليس من هذا الحكم بد ؟ أقترى أن تفضيل أحد الرجلين على صاحبه يغنى أو يفيد ؟ نعم ليس من هذا الحكم بد ، لأنه تقرير الحق الواقع ، وفي هذا الحكم نفع عظيم لأنه وضع للأشياء في نصابها ، ولأنه يبين للبتدئين في الشعر من الشبان أين يكون المثل الأعلى . أما أنا فلا أستطيع أن أقول إن أحد الشعارين خير من صاحبه على الإطلاق . ولكن شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله . ولم يتقن ما أتقن حافظ من احساس الألم وتصوير هذا الاحساس وشكوى الزمان . لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادة ، وأنفذ منه بصيرة ، وأسبق منه الى المعانى ، وأبرع منه فى تقليد الشعراء المتقدمين . لأن حافظاً كان يقلد فى الألفاظ والصور ، وكان شوقي يقلد فيها وفى المعانى أيضاً . ولشوقي فنون لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها . شوقي شاعر الغناء

غير مدافع ، وشوقي شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقي
منشئ الشعر التمثيلي في اللغة العربية . يلتقي الرجلان في كثير ،
ويفترق الرجلان في كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم
المحدثين حظاً في اقامة مجدنا الحديث .

طه حسين



DATE DUE



حسين، طه
حافظ وشوقي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031798

ARY

